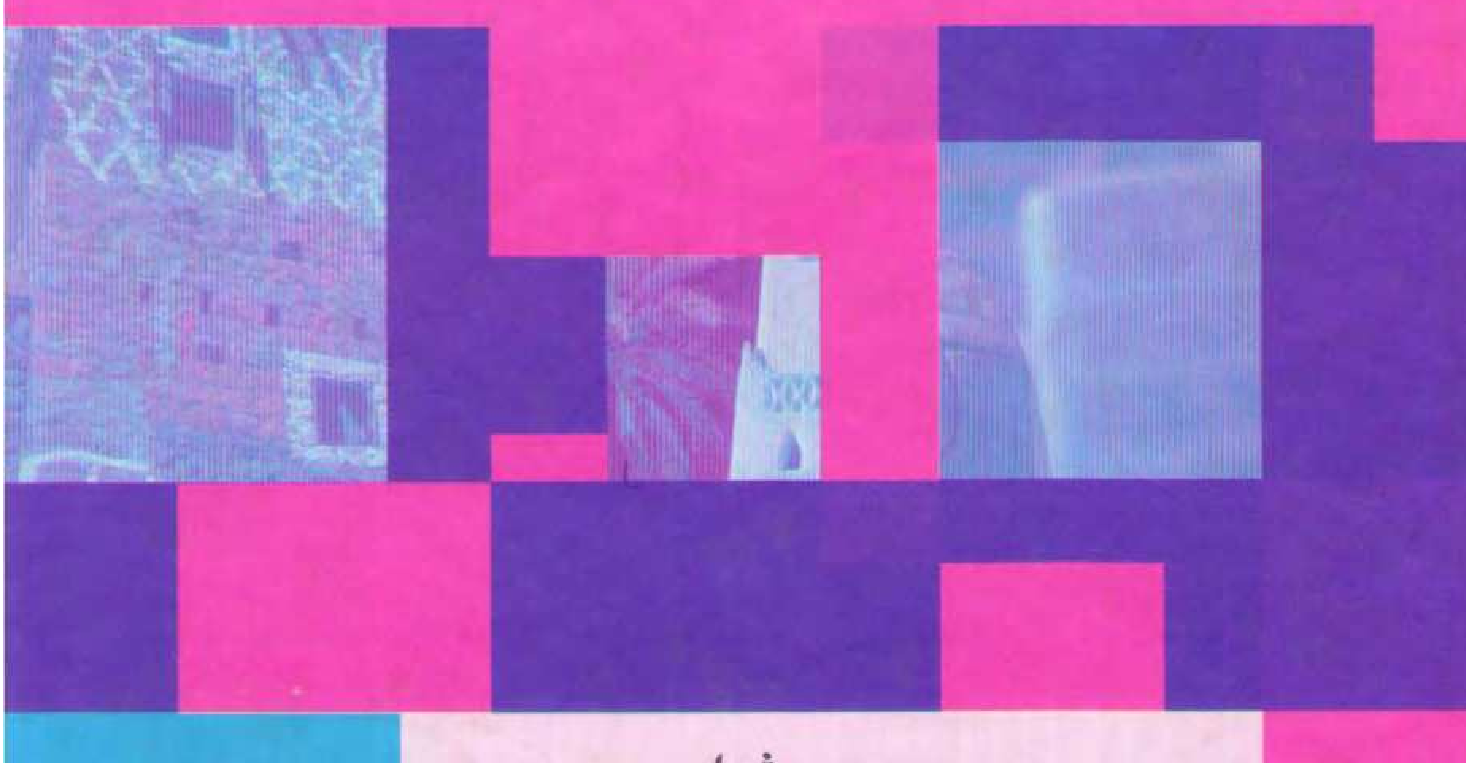


موسى بن نُصير

الفاتح الذي لم تهزم له راية



د. يحيى شامي



دار الفكر العربي
مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

موسى بن نُصير

موسى بن نُصير

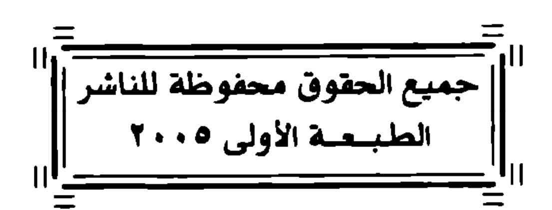
الفاتح الذي لم تهزم له راية

د. يحيى شامي



دار الفكر العربي

بيروت ـ لبنان





دار الفكر العربي

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش سليم سلام ـ بناية الشروق ـ الطابق الأول
هاتف: ٠١/٣١١١١٤ ـ ٠١/٣١١١١٥ ـ فاكس: ٠١/٣١٣٧٣٦
ص.ب: ١٤/٥٠٧٠ ـ بيروت ـ لبنان
Email: fikrarab@cyberia.net.lb

المقدمة

شهد العصر الأموي الذي امتدّ من سنة ٤١هـ/ ٦٦١م إلى سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م العديد من الغزوات والفتوحات، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، فكان ثمة فتح معاوية بن خديج لأفريقية، وفتح عقبة بن نافع للمغرب، سنة خمس وأربعين للهجرة، تلاهُ فتح رويفع بن ثابت الأنصاري سنة سبع وأربعين، وكان فتح الربيع بن زياد الحارثي لسجستان سنة ستّ وأربعين، وفتح سنان بن سلمة الهذلي للهند سنة ثمان وأربعين، وفتح عبيد الله بن زياد لبخارى من بعد قطعه نهر جيحون سنة أربع وخمسين، وفتح سعيد بن عثمان بن عفان لسمرقند سنة ستّ وخمسين، وغزوة عبد الملك بن مروان بنفسه لبلاد مرعش، ومن ثم ولده محمد لملطة سنة ستّ وسبعين، وغزوة رتبيل بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ثمانين، فغزوة المهلب بن أبي صفرة لما وراء النهر سنة ثمانين من بعد قطعه نهر بلخ ونزوله على كشّ، فغزوة محمد بن مروان بن الحكم لأرمينية سنة اثنتين وثمانين، فغزوة عبد الله بن عبد الملك لبلاد الروم، مصيصة خاصةً، سنة أربع وثمانين، فغزوة المفضل بن المهلب لباذغنيس من أعمال هراة، ولمرو الروذ سنة خمس وثمانين، ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي لبلاد صاغان سنة ست وثمانين، ثم للصغد ولفرغانة سنة ثمان وتسعين، فغزوة المهلب لجرجان في السنة عينها، فغزوة عثمان بن حيان المزني لبلاد الروم سنة خمس ومائة، فغزوة الجراح الحكمي لبلاد الخزر سنة ست ومائة، فغزوة أسد بن عبد الله القسري لخراسان سنة ثمان ومائة، ففتح معاوية بن هشام خرشنة من ناحية ملطة سنة اثنتيْ عشرة ومائة. . . أقول كان ثمة فتوح وغزوات كثيرة، لكنّ أعظم هذه الفتوحات، وأكبرها شأناً، إطلاقاً، وأمداها في المكان والزمان، فتح موسى بن نصير العربي اللخمي ولاءً، لبلاد الأندلس، والأندلس اسم أطلقه العرب على إسبانيا والبرتغال، إثر فتحهما من قبل موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، كان ذلك سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، ما مهّد لاحقاً، لاستلام الأمويين، من بعد زوال ملكهم في المشرق على أيدي العباسيين، مقاليد الحكم في قرطبة عاصمة دولتهم الجديدة في الأندلس، وفي ما جاور قرطبة من سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م إلى سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م، ثم خلفهم ملوك الطوائف (من

سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م إلى سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، فالمرابطون (من سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م إلى سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م) فالموحدون (من سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م إلى سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م)، وكانت هزيمة الموحدين في وقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، سنة بداية تقهقر العرب أمام الإسبان، إذ سقطت قرطبة سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م، فانحصر سلطان العرب في غرناطة عاصمة بني نصر، أو بني الأحمر، حتى استولى عليها كلّ من إيزابيلاّ ملكة أراغون، وفرديناند ملك قشتالة، فأسرا آخر ملوكها أبا عبد اللّه، سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م.

فمن هو موسى بن نصير فاتح بلاد الأندلس، هذا؟ ومن هو هذا الذي جعل من الأندلس ولاية عربية إسلامية تابعة للخلافة الأموية في دمشق الشام، لتكون من بعد ذلك إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية، ثم لتكون خلافة أموية خالصة مستقلة في أقصى الغرب، عاصمتها قرطبة، من قبل أن تسقط ليبدأ عصر ملوك الطوائف، فالمرابطين، فالموحدين، فالضياع الكامل لهذا الفردوس العربي الإسلامي المفقود الذي سقط نهائياً في أيدي الفرنجة الإسبان سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م؟

هذا ما سنراه مفصّلاً في تضاعيف هذا الكتاب الذي عوّلنا في جمع المعلومات المتعلقة بموضوعه على الكتب التاريخية القديمة المعتبرة، ناهجين في دراستنا له منهجاً وسطيّاً تاريخياً تكاملياً موضوعيّاً، ولقد اخترنا للكتاب عنواناً هو (موسى بن نصير: الفاتح الذي لم تُهزم له راية) وقسمناه إلى فصول رئيسية ثلاثة هي:

١ ـ الحقبة الأفريقية.

٢ ـ الحقبة الأندلسية.

٣ ـ نهاية المطاف.

فاللّه، نسأل، السداد والصواب، وما التوفيق إلاّ به.

د. يحيى شامي

الفصل الأول

الحقبة الأفريقية

مبحث أول

نبذة من حياة موسى بن نصير

من هو موسى؟

هو موسى بن نصير اللخميّ، أو البكريّ، العربيّ بالولاء، المولود زمن عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ، والمتوفى سنة ٩٧هـ، وقيل سنة ٩٩هـ، فاتح بلاد الأندلس، وأحد الذين غزوا البرّ الأفريقي في خلافة عبد الملك بن مروان، فاتحاً المصر بعد المصر، والثغر تلو الثغر، متابعاً الفتح والغزو في خلافة الوليد بن عبد الملك، إلى أن كتب له النصر والظفر بمعظم أصقاع البرّ الأفريقي الشمالي المتوسطي... وفي لحظة من لحظات الزمن الخالدات، أرسل موسى مولاه طارق بن زياد لغزو إسبانية، ثم لحق به، متوغلاً في تلك البلاد، ليعود ومعه مولاه طارق إلى الشام بمكاسب ومغانم لم تعهدها الفتوح من قبل، مرسياً، ولأول مرة، قدم الإسلام في تلك البلاد الغربية النائية، والغريب في الأمر أن نهاية هذا الفاتح العظيم لم تكن بالمستوى اللائق به، إذ سرعان ما غدر به ملوك أميّة وحكامها، فعاش في أخريات أيامه شريداً متخفيّاً عن الأنظار، فقيراً منسيّاً، أرهقه الدين، وكأنه ما كان ذلك الفاتح الذي بنى ذلك البنيان، ولا أقام ذلك الصرح، ولا فتح ذلك الفتح.

موسى متوليّاً ديوان العراق

حدث ابن قتيبة، صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» قال إنه لما أراد عبد الملك بن مروان أن يولّي بشر بن مروان، أخاه، على العراق، كتب إلى أخيه الآخر عبد العزيز بن مروان، وكان والياً من قبله على مصر، وكان بشرٌ في عداد القادة ومعاونيه العسكريين، كتب عبد الملك إليه يقول: «إني ولّيت أخاك بشراً البصرة، فأشخص معه موسى بن نصير، وزيراً ومشيراً، وقد بعثت إليك بديوان العراق، فادفعه إلى موسى، وأعلمه أنه المأخوذ بكلّ خلل أو تقصير»[1].

وهكذا، وصل كتاب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز، فامتثل هذا أمره، فأمر أخاه بشراً بالشخوص إلى العراق، وكان معه موسى بن نصير، فلما نزل

---

(١) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ٢/ ٤٨.

البصرة بشر، دفع إلى موسى خاتمه، بالديوان، متخلّياً عن جميع أعماله، موكلاً الأمر إلى موسى الذي لبث ما لبث مع بشر الذي اكتفى بولاية البصرة، ثم جمع إليها من بعدُ ولاية الكوفة، ثم إنه، أي بشراً لما أراد أن يشخص إلى الكوفة وقد أخذه من السرور ما أخذ بالجمع بين المِصرين الكوفة والبصرة، حدث ما لم يكن بالحسبان، إذ أنه ما أن ركب يريد الكوفة حتى أصابته الآكلة، نالت من لحيته وشعر بدنه وجلده ولحمه، وما لبث أياماً حتى هلك، فلما بلغ عبد الملك في دمشق، موت بشر، وجّه الحجاج بن يوسف إلى البصرة ليكون والياً عليها من قبله[1].

عزله عن ديوان العراق

أوجس ابن نصير خيفة من الحجاج، ومنذا الذي لا يوجس منه خيفة وهو الذي قتل ما قتل، وصلب ما صلب، ويطش ما بطش، وسجن ما سجن، قائلاً في نفسه: ما فاتك فلا يفوتك، وكان عبد الملك قد أراده لأمر عتب منه عليه، فكتب خالد بن أبان إلى موسى بن نصير، من الشام: إنك معزول وقد وُجّه إليك الحجاج، وقد أمر فيك بأغلظ الأمر، فالنجاة النجاة، والوحى الوحى، فإما أن تلحق بالفرس فتأمن، وإما أن تلحق بعبد العزيز بن مروان مستجيراً به، وإلاّ تمكّن منك ملعون ثقيف، أي الحجاج، فيحكم منك[2].

دخوله على عبد الملك بن مروان

جاء موسى بن نصير كتاب أبان، هذا، فما كان منه إلاّ أن أسرع بركوب فرسه، ملتحقاً بالشام، وكان فيها بالإضافة إلى الخليفة، عبد العزيز بن مروان وقد وفد إليها بأموال من مصر، فكتب الحجاج في هذه الأثناء من العراق إلى الخليفة ملتمساً منه معاقبة موسى بن نصير، والنكال منه، بإرساله إليه، ليقتصّ منه جزاء ما اقترفت يداه، وما جمع من أموال العراق... كتب الحجاج هذا إلى الخليفة عبد الملك، لكن موسى، وهو المقرّب جداً من عبد العزيز بن مروان، أخي الخليفة، عرف كيف ينتهز الفرصة، ويهتبل المناسبة، فتوسل بعبد العزيز وإليه، طالباً منه الإذن بالدخول على عبد الملك، والشفاعة لديه، فأدخله عبد العزيز عليه، فلما رآه عبد الملك قال له: أنت موسى؟ ما تزال تعرض لحيتك علينا؟ فانخلع قلب موسى رعباً وقال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: لجرأتك علينا،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/٤٨.

(٢) نفسه ٢/٤٩.

ولاقتطاعك الفيء والغنائم. قال موسى: ما فعلت، يا أمير المؤمنين، وما ألوتك نصحاً واجتهاداً وإصلاحاً: قال: أقسم، لتؤدّينّ دينك خمسين مرة. قال موسى: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: قم، لتؤدّينّها مئة مرة. فانصرف موسى من عند عبد الملك، فأشار عليه عبد العزيز بالانصياع لأمر الخليفة، وبتأدية ما أمر به، فلما خلا به عبد العزيز أعانه بخمسين ألفاً، وأدّى هو خمسين ألفاً أخرى، في ثلاثة أشهر، نجمها عليه أقساطاً مقسّطة[١]

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٤٩.

مبحث ثانٍ

فاتحون متقدمون

أ ـ عقبة بن نافع:

سبق موسى بن نصير على ولاية مصر وشمال أفريقيا عدد من الولاة والقادة منهم معاوية بن خديج الكندي الذي جعله معاوية بن أبي سفيان، قائداً على طرابلس الغرب وبرقة، يساعده عقبة بن نافع، إذ تمكّنا من الوصول إلى جنوب قرطاجة، والاستيلاء على مدينة سوسة، وإلحاق الهزيمة بقائدها الروماني الذي لاذ إلى البحر فراراً من الجيش الإسلامي الأموي[1].

وأيّاً كان شأن ابن خديج، معاوية، فإن عقبة بن نافع المتوفى سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م، والذي خلف معاوية بن خديج، يعتبر بحق أحد أبرز القادة المسلمين الفاتحين الذين غزوا أفريقيا، وهو الذي بنى القيروان في تونس، وجامعها، والذي حارب البربر. . . وكان يزيد بن معاوية قد استعمله على أفريقيا، ثانيةً، في سنة ٦٢هـ/ ، وفي الطريق إليها موفداً من قبل يزيد، علم أمير القيروان أبو المهاجر بما يبيّت له يزيد من مكر وسوء مصير، فتردّد بادئ الأمر في الهرب، لكن عقبة كان أسرع إليه، فقبض عليه، وأوثقه في القيود، تاركاً فيها عدداً لا يستهان به من الجند، والذراري والأموال، مستخلفاً عليها زهير بن قيس البلوي، مستحثّاً السير باتجاه الغرب، ومعه العساكر من جند الشام، ومصر، وبعض البربر، حتى وصل إلى باغاية (بجاية) على ساحل الأبيض المتوسط، فاعترضه الروم الذين كانوا يشكلون حاميتها وبعضاً من سكانها، فهزمهم عقبة شرّ هزيمة، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وغنم غنائم لا تحصى، ثم إنه تابع فتوحاته باتجاه الغرب، فسار حتى وصل بلاد الزاب، وهي سلسلة أودية وجبال في الجزائر، بالأطلس الصحراوي، بين جبال أولاد نايل، وأوراس، فيها قرى ومدن كثيرة أشهرها مدينة أَرَبة، سكانها من نصارى الروم، أربة هذه دافع عنها سكانها، فأعمل عقبة في رقابهم السيف، فامتنع البعض، وهرب البعض الآخر، فألقى عليها الحصار، وراح متابعاً فتوحاته حتى وصل تاهرت في أقصى المغرب، فتآزر الروم والبربر معاً على جيش عقبة، فمني

---

(١) فتوح مصر وأفريقية والأندلس، لابن عبد الحكم عبد الرحمن القرشي، ص٦٩.

هذا الجيش بخسائر فادحة، لكن عقبة أصرّ على الفتح، ولم تلن له عزيمة، حتى حقّق الفتح المطلوب، والنصر المؤزّر المرغوب، مضيفاً إلى فتوحاته مدينة طنجة التي دانت له سلماً وطوعاً[1].

ب ـ زهير بن قيس:

ومن قادة الفتح الأفريقي زمن الأمويين، زهير بن قيس البلوي، وكان مقيماً ببرقة الليبية مرابطاً هناك حينما استعمله عبد الملك بن مروان على أفريقيا وذلك استنقاذاً للمسلمين الذين كانوا بالقيروان وما جاورها، استعمله عبد الملك قائداً ووالياً، وجهّز له جيشاً عظيماً سار به سنة ٦٩هـ، فبلغ الخبر كسيلة بن كمرم البربري، وكان هذا قد أسلم لما ولي أبو المهاجر أفريقيا، لكنه كان يضمر الغدر وهو في عسكر عقبة بن نافع، وكان يراسل الروم حقداً على المسلمين، أقول لما سار زهير بالجيش في سنة ٦٩هـ/ ، بلغ خبره كسيلة، فحشد حشداً من البربر والروم، وسار بهم إلى «ممش» وقيل: «ممس» منتهزاً فرصة الإيقاع بالمسلمين، وإن كان تظاهر بالإيمان، والوفاء بالعهد، وعدم الغدر، فلما بلغ زهيراً رحيل كسيلة إلى ممش، أقام بظاهر القيروان ثلاثة أيام، ثم رحل في طلب كسيلة، فالتقى جيشه بجيشه، واشتد القتال أيّما اشتداد، فما انجلت المعركة إلاّ عن هزيمة كسيلة وأصحابه، فتبع زهير وهو يقود المسلمين، تبع البربر والروم، فأدركوا منهم جماعة، فأبادوهم عن بكرة آبائهم، وما سلم إلاّ القليل من ملوك البربر والروم، وقادتهم، وأشرافهم، ثم إنّ زهيراً، وقد كتب اللّه له النصر، قفل راجعاً إلى القيروان، فأقام برهة من الزمن، لكن هاله مُلك أفريقيا العظيم، فأبى ذلك وقال: «إنما قدمت للجهاد، فأخاف أن أميل إلى الدنيا، فأهلك»[2].

وبالفعل ترك زهير القيروان مخلّفاً فيها العسكر، ورحل قاصداً مصر، ومعه جمع وخلق كثير، لكن الروم، بالقسطنطينية كانوا له بالمرصاد، إذ ما إن سمعوا بمغادرة زهير برقة باتجاه أفريقيا لمقاتلة كسيلة، حتى انصبوا بمراكبهم في البحر، وكانت هذه ترسو في ميناء صقلية، شدّها الروم باتجاه برقة، فأصابوا منها سبياً كثيراً، وغنموا كثيراً، وقتلوا ونهبوا كثيراً، ولما وصل الخبر إلى زهير، وكان غادر القيروان للتوّ في طريقه إلى مصر، أمر عسكره بالمسير إلى قتال الروم، فاشتد الأمر، يقول صاحب «الكامل في التاريخ» وعظم الخطب، وتكاثر الروم على

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٥٣.

المسلمين، فقُتل زهير، ومن معه، وما نجى إلاّ القليل، الأمر الذي كان وقعه شديداً على عبد الملك بن مروان، ما حفزه إلى إرسال جيش عظيم بقيادة حسان بن النعمان الغساني[١].

ج ـ حسان بن النعمان:

هو أحد القوّاد المشهورين، والسادة المعدودين في بني غسّان، بعث به عبد الملك بن مروان، على رأس جيش كثير العدد، وجهته أفريقية كان ذلك إثر مقتل زهير بن قيس، في سنة ٦٩هـ، وكان الناس قد اجتمعوا على عبد الملك خليفة للمسلمين إثر مقتل عبد الله بن الزبير، والقضاء على ثورته التي كان أعلنها على الأمويين، في الحجاز، والعراق، وبعض بلاد الشام.. والمهم أن عبد الملك، هذا، جهّز جيش حسان بن النعمان أحسن تجهيز، فدخل أفريقيا في السنة نفسها، حتى إذ ما بلغ قرطاجنة، من بعد وروده القيروان، وكان بها، أي بقرطاجنة ملك عظيم، وقوم من البربر والروم، لا يحصون، أعمل حسان السيف في رقاب أهل هذه الحاضرة، فهرب البعض في مراكبهم باتجاه صقلية، وبعضهم الآخر باتجاه بلاد الأندلس، ودان الآخرون له كرهاً، أو طواعية، ثم إنه أمر بتقدم العسكر خارج المدينة التي تهدم جزء من أسوارها وبيوتها، فوصلت العساكر إلى صطفورة، ثم بنزرت، من أعمال تونس، فأمر حسان بوضع السيف في الرقاب، لأنهم لم يدينوا بالإسلام، وكانوا من الروم أو البربر، ومن نجا منهم من السف قصد الغرب مولّياً فراراً من عساكر حسان، فوصل بعضهم إلى باجة، وهم الروم، ووصل بعضهم الآخر إلى بونة، وهم البربر، أما حسان فقد اضطره إلى الرجوع إلى القيروان لكثرة ما أصاب عساكره من جراح[٢].

قتاله البربر:

لما نزل عقبة بن نافع طنجة التي دانت له طواعية، سأل بطريقها الرومي، واسمه يوليان، عن البربر، فقال له هم قوم لا يعلم إلاّ الله عديدهم، ذوو بأس شديد، وهم خارجون عن الملّة النصرانية، بله الإسلامية، مقيمون في السوس الأدنى، إلى الغرب والجنوب من طنجة، فسار إليهم عقبة، حتى وصل إلى بلدة للبربر، كان فيها طلائعهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، كانت الدائرة فيه على البربر الذين ولّوا أمامه الأدبار، ما حفز عقبة إلى متابعة السير، فوصل السوس

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٥٤.

(٢) نفسه ٤/ ١٥٣.

الأقصى حيث معظم قبائل البربر، بقضّها وقضيضها، فلقيهم هناك، فما نزلوا عند طاعته، ولا استجابوا للدخول في الإسلام، فأعمل عقبة في رقابهم السيف، وسبى منهم سبياً كثيراً، وغنم المسلمون غنائم لا تُحصى، ومضى عقبة مجاهداً حتى وصل ماليان على شاطئ البحر المحيط، فشهر سيفه قائلاً قوله المشهور: «يا ربّ، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»[1] وفي رواية ابن عذارى، فإن عقبة لما اجتاح إقليم الزاب في المغرب الأوسط، فتاهرت قاعدة البربر، فطنجة التي فرض الصلح على قائدها وملكها يوليان الروماني. وصل إلى نهر ماسة على الأطلسي فشهر سيفه وقال: «اللهم إني لا أطلب إلا ما طلب عبدك ووليّك ذو القرنين ألاّ يُعبد في الأرض غيرك»[2] أجل، لولا البحر المحيط، لمضى عقبة قدماً مجاهداً في سبيل الله، لكن لكل شيء أجل وإبّان، إذ سرعان ما قفل عقبة راجعاً إلى المشرق، مجتازاً المكان المسمّى ماء الفرس، وسبب ذلك أنه وجنده عطشوا عطشاً شديداً في ذلك المكان، فصلّى بالجند صلاة الاستسقاء، فاستجاب ربّه صلاته ودعاءه، فانبجست عين ماء، ولا أغزر وأصفى، من تحت قدميْ فرس عقبة، فسمّي الماء ماء الفرس، ثم إنه تابع السير شرقاً مطمئناً، رابط الجأش حتى نزل بطبنة[3]، ثم بتهوذا البربرية، وكان يسكنها قوم من الروم، طمعوا في عقبة، فأغلقوا باب الحصن، وقاتلوه، وهو يدعوهم إلى الإسلام، فلم يقبلوا منه[4].

القضاء على كاهنة البربر:

تكاد تجمع كتب التاريخ والرواية على وجود كاهنة تكاد تكون أسطورية، كاهنة جراوية بربرية حكمت البربر حكماً لا رحمة فيه، لا بل إنها حكمت معظم مناطق أفريقيا المتاخمة للسواحل الشمالية البحرية[5]. لقد خرجت هذه الكاهنة انتقاماً لمقتل كسيلة البربري الذي كان اتخذ من القيروان قاعدة له، فراحت تظلم وتقهر كل من انتسب إلى الإسلام خاصة، وإلى العرب الذي كانوا يقيمون في

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٥١.
(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى ١/ ٢٧.
(٣) بلدة في طرف أفريقية مما يلي المغرب، على ضفة نهر الزاب. انظر: معجم البلدان، لياقوت ٤/ ٢١.
(٤) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٥٢.
(٥) البيان المغرب ١/ ٣٦.

القيروان، ما دفع عبد الملك الخليفة الأموي، على الإيعاز لحسان بن النعمان، بأن يتجه نحو تلك الكاهنة، ويحاربها في عقر دارها بجبال الأطلس البربرية، لكن النصر لم يكن حليفاً لحسان، في بادئ الأمر، ما اضطرّه إلى الرجوع إلى برقة، فأقام بها مدة، فسير إليه عبد الملك جيشاً لجباً، وأمره ثانية بالقصد إلى الكاهنة، فسار حسان إليها، على رأس ذلك الجيش، فقاتلها، فانهزمت وجيوشها وقتلت الكاهنة، وقطع دابر القوم، ثم إنه رجع إلى القيروان، ومن ثم إلى دمشق الشام لملاقاة الخليفة الأموي الذي استخلف على أفريقيا رجلاً آخر اسمه صالح، إليه ينسب فحص صالح، حتى الآن[١].

وفي رواية صاحب الكامل في التاريخ، أن حسّاناً الغساني لما تعافى وجيشه من الجراح التي كان أصيب بها في معاركه التي خاضها ضد الروم والبربر في صطفورة، وبنزرت، وغيرهما من المدن الأفريقية الشمالية، سأل عن أعظم من بقي من ملوك البربر، فقيل له ثمة امرأة تملكهم تعرف بالكاهنة، لأنها كانت تتعاطى الكهانة، وترجم بالغيب، وهي تقيم في صرود جبال الأوراس، وحولها الجند المدججون بالسلاح، لا يحصى عددهم، فسار إليها حسان، فلما شعرت به أمرت بهدم حصن بجاية، لظنّها أن حساناً يريد الحصون، لكن حسّاناً تنكب طريق الحصون، وسار إليها، فالتقى الجيشان على نهر نيني[٢]، فانهزم المسلمون شرّ هزيمة، وأسر منهم خلق كثير منهم خالد بن يزيد القيسي فلما أعلم حسّان عبد الملك بالحال، فأمره هذا بالإقامة في برقة، بانتظار المدد، فأقام بها حسان، وابتنى قصوراً تعرف بقصور حسان، مضى على ذلك خمس سنوات حتى جاء المدد والجند والمال، وجاء أمر الخليفة الذي يطلب فيه إلى حسان أن ينهض إلى قتال الكاهنة من جديد، فأرسل حسان إلى خالد بن يزيد الذي كانت أسرته الكاهنة، وقربته إليها، أرسل رسولاً يستنبئ خالداً خبر القوم والجند وأماكن إقامة العسكر، ومواضع انتشاره، والحصون التي يقيم بها الجند، وما لبث غير يسير حتى رجع الرسول ومعه الخبر اليقين، فلما استشعرت الكاهنة قدوم جيوش المسلمين والعرب بقيادة حسّان الغسّاني، رجمت بالغيب، فعلمت بأن النصر حليف العرب والمسلمين، فأمرت بتفرّق البربر في كل ناحية، وبتخريب البلاد، وهدم الحصون، ونهب الأموال، من قبل أن ينهبها جند حسّان.

---

(١) البيان المغرب ١/ ٣٧.

(٢) نيني: نهر مشهور في أقصى أفريقية.
انظر: معجم البلدان ٥/ ٣٣٩.

وهذا ما كان بالفعل، إذ سرعان ما أقدم حسّان على مهاجمة البربر، قاصداً الكاهنة في عقر دارها، فدخل قابس فاتحاً ظافراً، فدان له سكّانها بالطاعة والجزية، وكان أهلها مزيجاً من البربر والروم، ثم سار إلى قفصة، فاستولى عليها، ثم إلى قسطيلية، فنفزلوه، وغيرهما من الحواضر والدساكر، فلما علمت الكاهنة بدنوّه من محل إقامتها أمرت ولديها بالحضور، فحضرا، ثم أمرت خالداً بالحضور، فحضر، ومثل الجميع أمامها، فقالت لهم: إمضوا إلى حسان، وخذوا لأنفسكم منه أماناً، فإني مقتولة، لا محالة، وهكذا كان، إذ التحم الجيشان، وأسفرت المعركة عن هزيمة البربر، ونصر المسلمين، وفي وسط هذا الهياج سأل حسان عن الكاهنة، فدلّوه عليها، فأدركها، فقتلها. وهكذا دانت البربر للعرب، من بعد أن أمّنهم حسان على ذراريهم وأموالهم، مشترطاً عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين، عدّتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدوّ، فأجابوه إلى ذلك، فجعل على العسكر ولديْ الكاهنة، وهكذا فشا الإسلام في البربر، وعاد حسان إلى القيروان في غرّة شهر رمضان من سنة ٧٤هـ، وأقام لا ينازعه أحد حتى وفاة عبد الملك بن مروان، فلما ولي الوليد بن عبد الملك ولّى أفريقيا عمّه عبد الله بن مروان، فعزل عنها حساناً، مستعملاً بدلاً منه موسى بن نصير، وذلك سنة ٨٩هـ[١].

كتاب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز:

هذا في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، وهو من أشهر كتب التاريخ، أما في «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة، وهو من قدامى المؤرخين فإن هذا حدث قبل ذلك التاريخ، حدث زمن عبد الملك سنة ٨١هـ، وإن عبد العزيز بن مروان أخا عبد الملك، أمير مصر هو الذي ولّى موسى بن نصير، وعزل حساناً الغساني، وذلك بعد أن فتح الله لموسى ما فتح من البلدان، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان فكره ذلك، وأنكره، بمقدار ما كره في الوقت عينه أن يردّ رأي أخيه عبد العزيز، ما أوقعه في حيرة من أمره، متردّداً في الإقدام على عزل موسى بن نصير، لسوء رأيه هو شخصياً فيه، أو في الإقدام على مصانعة أخيه عبد العزيز، والقبول بما أقدم عليه، وما صنعه لجهة عزل حسان، وتولية موسى بدلاً منه، آمراً كاتبه أن يكتب إلى عبد العزيز ما يلي:

أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان، وتوليتك

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٦.

موسى مكانه، وعلم الأمر الذي له عزلته، وقد كنت أنتظر منك مثلها في موسى، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيت، وولايتك من ولّيت، فاستوصِ بحسان خيراً، فإنه ميمون الطائر، والسلام[١].

كتاب عبد العزيز:

كان ذلك ما بعث به عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بشأن عزل حسان، وتولية موس بن نصير، فلما أن قدم كتاب الخليفة على عبد العزيز كتب هذا إلى أخيه عبد الملك:

أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في عزل حسان، وتوليتي موسى بن نصير، وقد كان لمثلها مني منتظراً في موسى، ويعلمني أنه قد أمضى لي من رأيي فيما أمضيت، وولايتي من ولّيت... وقد علمت أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان للذي فتح الله على يديه، ولم أعد مع نظري لأمير المؤمنين، بأن عزلت حساناً، ووليت موسى في يمن طائره، وحسن أثره.

فأما قول أمير المؤمنين: قد كنت أنتظرها منك في موسى، فلعمري لقد كنت لها فيه مرصداً، ولأمير المؤمنين أن يسبق بها إليه منتظراً، حتى حضر أمر جهدت فيه نفسي لأمير المؤمنين، ولنفسي الرأي والنصيحة، والسلام[٢].

كتاب آخر:

وفي رواية أن عبد العزيز لما ولى موسى بن نصير مكان حسان الغساني، وقد فتح الله لموسى ما فتح من الأمصار والبلدان، كتب بهذا إلى عبد الملك بالشام، هذا الكتاب:

«إني كنت وأنت، يا أمير المؤمنين، في موسى وحسان كالمتراهنين، أرسلا فرسيهما إلى غايتهما، فأتيا معاً، وقد وذّت الغاية لأحدهما، ولك عنده مزيد، إن شاء الله، وقد جاءني يا أمير المؤمنين كتاب من موسى، وقد وجهته إليك لتقرأه، وتحمد الله عليه، والسلام...»[٣].

جواب الخليفة:

أما جواب الخليفة عبد الملك بن مروان ردّاً على هذا الكتاب، فكان هو التالي.

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٣.

(٢) نفسه ٢/ ٥٣.

(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٣.

«أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك، وفهم المثل الذي مثلته في حسان وموسى، ويقول لك عند أحدهما مزيْد، وكلّ قد عرف الله على يده خيراً ونصراً، وقد أجريت ـ أي أرسلت ـ وحدك، وكل مجرٍ بالخلاء مسرور والسلام. . .»(١)

ما هو هذا المزيد؟

مرّ بنا أن عبد العزيز في الكتاب الذي بعث به إلى أخيه عبد الملك، ضمّن كتابه قوله: ولك عنده ـ أي عند موسى ـ مزيد، إن شاء الله.

فما هو هذا المزيد؟ إنه الغنائم، والأموال، والفيء الذي أفاءه الله على موسى، ما تجاوز بكثير ما كان يتأتى لحسان الغساني من قبله، وهذا ما حدا بعبد الملك، إثر تلقّيه كتاب أخيه عبد العزيز، أن يوجه إلى موسى بن نصير رجلاً ليقبض ذلك المزيد منه، على ما ذكر موسى نفسه، وعلى ما كان كتب به، فلما قدم الرجل، أو الرسول على موسى دفع إليه هذا ما كان ذكر، وزاده ألفاً للوفاء(٢).

وأياً يكن، فلسوف يتضح لك لاحقاً أكثر من هذا المزيد الذي هو السبي، والغنائم، والفيء، والأموال على اختلاف أجناسها ومقاديرها، كان يأتي بها، أو يبعث بها موسى إلى عبد الملك بن مروان، ومن بعده إلى الوليد بن عبد الملك، تحملها الفُلك أو الجمال من أفريقيا والأندلس، وليس أقلّ هذا «المزيد» تلك التي أطلقوا عليها اسم مائدة سليمان بن داود، كانت وجدت في طليطلة ببلاد الأندلس، تقول رواية صاحب «جذوة المقتبس» إنها كانت من الذهب الخالص، مطعّمة بالفضّة الخالصة، مطوّقة باللؤلؤ والياقوت والزمرّد، حاول حملها بغل من أقوى البغال، فما استطاع أن يحملها. . .

هذا عن المائدة، مائدة سليمان، ودع عنك ذكر تيجان الملوك التي بعث بها أيضاً، أو حملها بنفسه موسى إلى بلاد المشرق، هذا فضلاً عن عشرات آلاف الرؤوس من السبايا والرقيق(٣).

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٣.

(٢) نفسه ٢/ ٥٤.

(٣) جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس، للحميدي ٢/ ٥٠.

مبحث ثالث

موسى والفتح المظفر

تمهيد:

كنا ألمعنا إلى أن البربر والرومان البيزنطيين كانوا يقيمون معاً في أكثر من بلدة، أو إقليم، أو حاضرة من حواضر شمال أفريقيا، وإلى أن الأمويين لما افتتحوا بلدان الشمال الأفريقي إنما واجهوا مقاومة مشتركة من قبل البربر والبيزنطيين. . وكنا ألمعنا أيضاً إلى أن زهير بن قيس، حاكم برقة عرف كيف ينتقم، ومعه جند الشام، من كسيلة البربري حاكم القيروان، لكن البيزنطيين سرعان ما انتقموا لكسيلة من زهير، وهو في الطريق إلى برقة. . . ثم إن حسان بن النعمان الغساني الذي عقب زهيراً في الفتوح، وكان عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي، قد عقد له لواء الفتح، فقدم من الفسطاط المصرية، غازياً بجند من أهل الشام، فافتتح طرابلس، ثم افتتح القيروان حتى وصل قرطاجة مقر العدد الجمّ الغفير من البيزنطيين والبربر، فافتتحها، وأعمل السيف في رقاب مقاتلتها، ثم إنه تابع الزحف حتى افتتح بنزرت، وصطفورة، وقد ولّى البربر . . . اتقاء بطشه وسطوته، فتحصنوا في بونة، ما اضطرّ حسّاناً إلى العودة إلى القيروان في تونس[1].

وكنا ألمعنا، من قبل، إلى أن كاهنة البربر الجراوية، كانت قد أعلنت الثورة على الأمويين، انتقاماً لمقتل كسيلة البربري، ولمقتل العديد من بني جلدتها، أعلنت الثورة على حسان الغساني فاضطرّته إلى التراجع إلى برقة، من بعد انتصارها في معركة نيني، ويطلق عليها اسم معركة وادي العذارى، أيضاً، بحيث أنها تمكنت من أن تبسط نفوذها على العديد من حواضر الشمال الأفريقي، وما أن ساءت العلاقة من جديد بين البربر والبيزنطيين حتى دبّ الوهن في صفوف جند الكاهنة، فاندفع بعضهم باتجاه جند المروانيين بقيادة حسان بن النعمان، معلنين له الولاء ما مكّن هذا الأخير من الانتصار على الكاهنة، ومن كسرشوكتها، والسيطرة دونها على مدن الشمال الأفريقي، متخذاً من القيروان خاصة، ومن بجند البربري

---

(١) البيان المغرب ١/ ٣٥.

في إعادة تنظيم صفوفهم، وهذا ما مكّن، ولأول مرة، حسّاناً من أن يجمع في صفوفه نخبة بربرية مقاتلة، ستكون عمدة الجيش الإسلامي الفاتح، من بعد، لا في أفريقيا، فحسب، بل وفي بلاد الأندلس، وسيتضح خبر هذا التلاحم بين العرب والبربر، أكثر فأكثر، لاحقاً، زمن تولّي موسى بن نصير مقاليد الحكم والولاية، عقباً لحسان بن النعمان الغساني[١].

موسى يخلف حسان بن النعمان:

بدفع أموال العراق منجّمةً نجوماً من قبل موسى بن نصير، في ثلاثة أشهر، للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وبدهاء وطواعية وسلاسة وسياسة مرنة أبداها موسى إزاء خليفته الحانق عليه، وبمعونة من عبد العزيز بن مروان، أخي الخليفة، وأميره على مصر، عرف موسى كيف يأمن غضب الخليفة، وكيف يستحوذ على عقل عبد العزيز وفكره وقلبه، وبالفعل فإن هذا الأخير لما رجع إلى مصر، قادماً من الشام، حمل معه موسى بن نصير، وكان كما يقول صاحب «الإمامة والسياسية» من أشرف الناس عنده، وأعظمهم قربى وزلفى لديه[٢]، فأقام بمصر ما أقام إلى أن قدم حسان بن النعمان المتقدم ذكره في ذكر من تعاقب على حكم أفريقيا، وقاد جيوش الفتح في ثغورها، قدم حسان بن النعمان الغساني من أفريقيا يريد الشام، ووجهته تقبيل عتبات الخليفة وزفّ نبأ الفتح العظيم الذي أذن اللّه له به، وقد حمل معه الأموال والغنائم، فاستقبله عبد الملك استقبال الفاتحين مثنياً على بطولته وعزيمته ومضائه، وعلى ما أبداه من بلاء وشدّة في الانتصار على البربر والرومان، وخصوصاً تلك الكاهنة البربرية التي كانت تتحكم بجبال أوراس والمنافذ المطلّة على بحر الروم وبناء عليه، وتكريماً لحسان، وجزاء له، فإن الخليفة أضاف إلى ولاية حسان على أفريقيا ولاية برقة، الأمر الذي أغاظ عبد العزيز بن مروان الذي كان في نيّته أن يولّي موسى بن نصير عليها، فلما نزل حسان مصر راجعاً من الشام، ومعه الجند، والبعوث، أرسل إليه عبد العزيز، فقال له أولاّك أمير المؤمنين برقة؟ قال: نعم. فقال له عبد العزيز: لا تعرض لهذا الأمر، فإن عليها مولى لي، ولا أريدك أن تتعرّض له بسوء، فقال حسان: ما أنا فاعل إلاّ ما أراده أمير المؤمنين، فغضب عبد العزيز، وطلب إليه أن يأتي بالعهد الذي زوّده الخليفة به، فأتى حسان به، وأقرأه عبد العزيز الذي سرعان ما انتفض

(١) البيان المغرب ١/ ٩٩.
(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٤٩.

في وجه حسان ملتفتاً إليه، قائلاً: ما أنت بتارك برّقة؟ قال: والله، لا أنعزل عمّا ولّانيه أمير المؤمنين. قال: فاقعد في بيتك، فإن هذا الأمر سيتولاّه من هو خير منك، وأولى به منك، في تجربته وسياسته، ويغني به الله أمير المؤمنين عنك ـ يريد موسى بن نصير[١]

وهكذا، فإن عبد العزيز بن مروان، الذي مزّق العهد الذي عهد به الخليفة لحسّان، وداسه تحت قدميه، دعا بموسى بن نصير، فعقد له على أفريقية يوم الخميس في شهر صفر سنة تسع وسبعين، فتجهز موسى بن نصير، وحمل الأموال إلى الموضع المسمّى بذات الجماجم، وكان فيه العساكر ينتظرون قدوم واليهم عليهم، فقدم موسى عليهم، فما أن صار على العسكر الأول حتى وقع طائر صغير على صدره، فأخذه موسى بكلتا يديه، فاستلّ سكّيناً من جنبه، فذبح الطائر، ملطخاً بدمه أعلى صدره من فوق الثياب، نازعاً من جسم الطائر ريشه المصبوغ بالدم، طارحاً هذا الريش على صدره وجسمه وثيابه، قائلاً، على سبيل الفأل بالطائر: الفتح، وربّ الكعبة، والظفر إن شاء الله[٢].

خطبة موسى:

الفتح، وربّ الكعبة، والظفر، إن شاء الله! كلمة قالها موسى بن نصير متفائلاً بالطائر الذي حطّ على صدره، كلمة سوف تصحّ، لاحقاً ويصدق قائلها، لكن دون ذلك أهوال وخطوب ومعارك ضارية، سنعرض لها تباعاً، لكن، قبل هذا لا بد من الإشارة إلى الخطبة التي قيل إن موسى بن نصير ألقاها في الحشود من العساكر وغير العساكر الذين تحلّقوا عليه لما قدم ذات الجماجم، تقول الرواية إن موسى جمع الناس فقام خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، إنّ أمير المؤمنين، أصلحه الله، يعني عبد الملك بن مروان، رأى رأياً في حسّان بن النعمان، فولاّه ثغركم، ووجّهه أميراً عليكم، وإنما الرجل في الناس بما أظهر، والرأي في ما أقبل، وليس في ما أدبر.. فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز، أكرمه الله، كفر النعمة، وضيع الشكر، ونازع الأمر أهله، فغيّر الله ما به... وإنما الأمير، أصلحه الله، صنو الأمير أمير المؤمنين، وشريكه، ومن لا يهتمّ في عزمه ورأيه، وقد عزل حسان عنكم، وولاّني مكانه عليكم، ولم يأل أن أجهد نفسه في الاختيار لكم، وإنما أنا رجل كأحدكم،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٠.

(٢) نفسه ٢/ ٥٠.

فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحضّ على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون. . . وقد أمر الأمير أكرمه الله، لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان، مع المواساة، إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله[1].

خطبة قيّمة جليلة المعنى، جزلة الكلام، ناصعة البيان، فيها موعظة وحكمة، وتبيان لما أقدم عليه، وأنّ ما أقدم عليه فإنما هو في حدود الشرع والمنطق والائتمار بأمر الأمير، أي عبد العزيز، وعبد العزيز، هذا، هو أخو أمير المؤمنين، وصنوه، وعدله، والحاكم بأمره في مصر.

خطبة تذكّرنا بخطبة أبي بكر، الخليفة الأول الذي تولى مقاليد أمور المسلمين من بعد وفاة رسول الله ﷺ، تلك الخطبة الموجزة المعبّرة التي أظهر فيها من روح الخشية لله، والالتزام بأمر الجماعة، والانصياع لمشيئتهم، والتذلّل لهم، تلك الخطبة التي فيها يقول:

«أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني.

أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»[2]

خطبة أخرى:

وثمة خطبة أخرى ذُكر أن موسى بن نصير قالها لما قدم أفريقية، وقد راعه ما فيها من جبال وسهوب وصحاري وجنائن وأنهار، وفي هذه الخطبة يغمز موسى من قناة من سبقه من الحكام والولاة والفاتحين الذين صنّفهم في خطبته صنفين اثنين هما: أمراء وفاتحون مسالمون يؤثرون العافية، ويقنعون بالقليل، وفاتحون ضعاف العقيدة، قليلو المعرفة، رضوا بالهوان عن اقتحام الأهوال، وتحقيق الآمال . . . . . . وأيّا يكن مستوى الخطبة البلاغي والكلامي، وهي بليغة، لا شكّ، فإن موسى ما عنى ما عنى إلاّ حسان بن النعمان الغساني، خاصةً، وإن لم يسمّه بالاسم، أما الخطبة، فلأهميتها، نوردها بالتمام وهي:

«أيها الناس، إنما كان قبلي على أفريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية، ويرضى بالدون من العطيّة، ويكره أن يُكلم، أي يجرح، ويحب أن يسلم، أو رجل

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٠.

(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربّه ٢/ ١٣٠.

ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راضٍ بالهوينى؟ وليس أخو الحرب إلاّ من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همّته، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو، ويسلم دون أن يَكلم أو يُكلم، ويُبلغ النفس عذرها، في غير حقّ يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلاً في حزمه، جازماً في عزمه مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجابن إقحاماً، ولا بالمتخاذل إحجاماً. . . إن ظفر لم يزده الظفر إلاّ حذراً، وإن نكب أظهر جلادة وصبراً، راجياً من اللّه حسن العاقبة، فذكر بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَـٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، أي الحذرين. .

وبعد، فإن من كان قبلي كان يعمد إلى العدوّ الأقصى، ويترك عدوّاً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدلّ منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة. . . وأيم اللّه، لا أريم ـ أترك ـ هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع اللّه أرفعها، ويذلّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها، أو يحكم اللّه لي وهو خير الحاكمين»[١].

انتهت الخطبة، وهي كما لاحظت من عيون خطب الجهاد، والحثّ على التقوى والصبر والكفاح حتى يقضي اللّه أمراً كان مقضياً، ولا يخفى على القارئ ما رمى إليه موسى بن نصير من الغمز من قناة الذين سبقوه إلى الفتح، حسان بن النعمان الغساني خاصة، كما لا يخفى على القارئ أن الأسلوب الذي اعتمده موسى في هذه الخطبة، لجهة المتانة، ونصاعة الكلام والبيان، والفصاحة، والالتزام بالسجع الذي كان غالباً على الخطابة في العصور الإسلامية المتقدمة، إنما يدلّ على قوّة شخصية موسى، وعمق ثقافته، وشدّة عزمه وإيمانه وتصميمه، وإخلاصه لدين اللّه.

رواية ابن الأثير:

ثمة خلاف بيّن يطالعنا لا بدّ من الإشارة إليه، هو خلاف المؤرخين في السنة التي تولّى فيها موسى بن نصير مقاليد الحكم أو الولاية، وفي من ولّى موسى بن نصير، وعهد إليه هذ العهد، لكن نكتفي بما أورده صاحب «الكامل» في التاريخ، وهو يؤرخ لسنة ٨٩ هجرية، إذ يقول، وإنا لذاكرون قوله بتمامه:

«في هذه السنة استعمل الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير على أفريقيا، وكان نصر والده على حرس معاوية، فلما سار معاوية إلى صفين لم يسر معه،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥١.

فقال له: ما يمنعك من المسير معي إلى قتال عليّ، ويدي عندك معروفة، فقال: لا أشركك بكفر من هو أولى بالشكر منك، وهو اللّه عزّ وجلّ، فسكت عنه معاوية، فوصل موسى إلى أفريقية، وبها صالح الذي استخلفه حسان على أفريقية وكان البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسّان، فلما وصل موسى عزل صالحاً، وبلغه أنّ بأطراف البلاد قوماً خارجين عن الطاعة، فوجّه إليهم ابنه عبد اللّه، فقاتلهم، فظفر بهم، وسبى منهم ألف رأس، وسيّره في البحر إلى جزيرة ميورقة، فنهبها، وغنم منها ما لا يحصى، وعاد سالماً، فوجه ابنه هارون إلى طائفة أخرى، فظفر بهم، وسبى منهم نحو ذلك، وتوجه هو بنفسه إلى طائفة أخرى، فغنم نحو ذلك، فبلغ الخُمس ستين ألف رأس من السبي. . . ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا[1].

ويتابع صاحب الكامل روايته المتناقضة في أكثر من موضع مع رواية صاحب الإمامة والسياسة، كما سنبين ذلك لاحقاً، فيقول:

ثم إن أفريقية قحطت واشتدّ بها الغلاء، فاستسقى بالناس وخطبهم، ولم يذكر الوليد، فقيل له في ذلك، فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لأحد، ولا يذكر إلا اللّه عزّ وجلّ، فسُقي الناس، ورخصت الأسعار، ثم خرج غازياً إلى طنجة يريد من بقي من البربر، وقد هربوا خوفاً منه، فتبعهم، وقتلهم قتلاً ذريعاً حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد، فاستأمن البربر إليه، وأطاعوه. . .[2] إلخ.

رواية ابن قتيبة:

رواية تختلف والرواية التي ساقها ابن قتيبة في كتابه الموسوم بالإمامة والسياسة، إن لجهة السنة، وإن لجهة اسم الخليفة الذي أمر بتولية موسى بن نصير والياً على أفريقيا. . .

فلقد ذكر صاحب الإمامة والسياسة نقلاً عن رواية، أن موسى بن نصير سار متوجهاً إلى المغرب بقيّة صفر، ثم ربيع وربيع، ودخل في جمادى الأولى، يوم الاثنين، لخمس خلون منه، سنة تسع وسبعين ـ في الكامل سنة ٨٩هـ، لاحظ الفرق ـ فأخذ سفيان بن مالك الفهري، وأبا صالح الفهري ـ في الكامل صالح، لا أبو صالح ـ فغرّم كل واحد منهما عشرة آلاف دينار، ووجهما إلى عبد الملك في الحديد. وكان قدوم موسى أفريقية وما حولها مخوفاً بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في العيدين،

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ٢٥٢.
(٢) نفسه ٤/ ٢٥٢.

لقرب العدوّ منهم، وإن عامة بيوتهم الخصوص، وهي البيوت من البوص ونحوه، وأفضلها القباب، وبناء المسجد يومئذٍ شبيه بالحظير، غير أنه مسقوف ببعض الخشب، وقد كان ابن النعمان بنى القبلة وما يليها، بالمدر، بنياناً ضعيفاً، وكانت كلها محاربة لا ترام، وعامّة السهل. . . انتهى كلام صاحب الإمامة والسياسة[1].

رواية ابن العماد:

وفي شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، وهو يؤرخ لسنة أربع وثمانين، نجد ما يناقض رواية كل من ابن قتيبة، وابن الأثير، إذ هو يقول: في هذه السنة ـ أي سنة ٨٤هـ ـ افتتح موسى بن نصير أوروبة من المغرب، وبلغ عدد السبي خمسين ألفاً[2].

رواية ابن خلّكان:

وفي «وفيات الأعيان» لابن خلّكان المتوفى سنة ٦٨١هـ وهو يتحدث من موسى بن نصير منوّهاً بمقامه بأنه من الفاتحين الأفذاذ، ومن التابعين الذين رووا عن تميم الداري، وبأنه عاقل ورع شجاع، لم يهزم له جيش أبداً، أقول إن ابن خلكان ينقل عن صاحب «جذوة المقتبس» للحميدي، رواية قد تختلف عن رواية ابن قتيبة، ورواية ابن الأثير، ورواية ابن العماد، تختلف اختلافاً بيّناً إلى حدّ ما، إن لجهة الأسماء، وإن لجهة التاريخ، وإن اتفقت في المضمون، إلى حدّ ما، ثانيةً يقول صاحب وفيات الأعيان، نقلاً عن رواية جذوة المقتبس، تولّى موسى بن نصير أفريقيا والمغرب سنة ٧٧هـ ـ في الكامل سنة ٨٩هـ، وفي الإمامة والسياسة سنة ٧٩هـ ـ أرسله إليها عبد اللّه بن مروان أخو عبد الملك، وكان والياً على مصر وأفريقيا، بعث إليه الوليد بن عبد الملك الخليفة سنة ٨٩هـ ـ في الإمامة والسياسة عبد العزيز بن مروان، لا عبد اللّه، هو الذي أرسل موسى، في زمن عبد الملك بن مروان، لا في زمن الوليد ابنه ـ [3].

على أن ثمة ما قد ينسجم لجهة المضمون مع الروايات الأخرى، إذ يقول صاحب وفيات الأعيان، نقلاً عن صاحب جذوة المقتبس، إنه لم يُسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير، وهو الذي حمل معه حوالي مائة ألف رأس من السبايا، وقد وجد أكثر مدن أفريقية خالية لاختلاف البربر عليها، فلما قحط

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥١.

(٢) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ١/ ٩٣.

(٣) وفيات الأعيان، لابن خلكان ٥/ ٣١٩.

العام، أمر الناس بالصوم والصلاة والإصلاح، فخرج بهم إلى الصحراء مع الحيوانات، مفرّقاً بين أولادها وبينها، فارتفع البكاء، وظلّوا هكذا إلى الظهر، ثم صلّى موسى، وخطب، فلم يذكر الوليد، ولم يدعُ له، فلما سئل عن ذلك قال: هذا مقام لا يُدعى فيه لغير الله، فسُقوا حتى رووا[١]

رواية تنسجم، أو قل تتفق كثيراً وتلك التي أوردناها من قبل، نقلاً عن صاحب الكامل في التاريخ.

(١) وفيات الأعيان ٥/ ٣٢٠.

مبحث رابع

فتوحاته الأفريقية

فتح زغوان:

من أهم الفتوحات التي أنجزها موسى بن نصير زمن عبد الملك بن مروان، خليفة المسلمين الأموي، بالشام، وزمن عبد العزيز بن مروان، أخي الخليفة، والأمير على مصر من قبل أخيه، فتح زغوان[1].

ثمة حاضرة للبربر كانت قريبة من القيروان التي اتخذها موسى بن نصير قاعدة حكمه وفتوحاته، تدعى زغوان، يسكنها قوم من بني عبدوه البربر، وكان عليهم ملك شديد البأس، عظيم الهيبة، يقال له ورقطان. . . وكان هؤلاء البربر من سكان زغوان يغيرون على ديار المسلمين، بين الحين والآخر، يغيرون على سروحهم ومواشيهم على حين غرّة، فيسلبون ما يسلبون، ويغنمون ما يغنمون، ثم ينكفئون إلى ديارهم غانمين وافرين، ما أثار حفيظة العرب والمسلمين من القاطنين في القيروان، أو في أرياضها، والسهول المحيطة بها على المتوسط الأبيض، فلما رفع الأمر إلى موسى بن نصير، أرسل إلى زغوان خمسمائة فارس بقيادة رجل من خشين يقال له عبد الملك فقاتلهم هذا قتالاً دونه قطع الرقاب،، فما انجلت الواقعة إلاّ عن هزيمة البربر، وقد قُتل مليكهم ورقطان، وأضحت المدينة نهباً للمسلمين الفاتحين، حتى إن السبي من النساء والرجال بلغ، على ما يذكر ابن قتيبة، عشرة آلاف رأس، ويعلّق على ذلك فيقول إنه كان أوّل سبي دخل القيروان في ولاية موسى بن نصير[2].

إبنا موسى يشاركان في الفتح:

ليس هذا فحسب، بل إنّ موسى، تقول الرواية، وجّه ولديه، الأول له يقال له عبد الرحمن، وجّهه إلى نواحي زعوان، فضرب بعيداً في عمق بلاد البربر، فما

---

(١) زغوان اسم بلدة أو جبل جنوبي تونس، يضرب به المثل، فيقال: أثقل من زغوان. انظر: معجم البلدان ٣/ ١٤٤.

(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٢.

آب من غزوته، ومضيّه في الفتح إلاّ ومعه مائة ألف رأس من السبي، أما الآخر، ويقال له مروان، فضرب في الأرض، أرض البربر بعيداً، بأمر من أبيه، فما رجع إلاّ ومعه الغنائم والأموال والسبي الجمّ الغفير، قيل: إن خمسه، بلغ يومئذٍ ستين ألف رأس[١].

كتاب موسى إلى عبد العزيز بالفتح:

ومن طريف ما حدث إثر هذا النصر المؤزّر، والغُنم المظفر، أن موسى بن نصير كتب إلى عبد العزيز بن مروان، وليّ نعمته، والأمير على مصر، من قِبل أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان بالشام، كتب إليه يخبره بالفتح الذي فتح اللّه عليه، وبالنصر الذي حقّقه له، والأمر الذي أمكنه له، ويعلمه أن خمس الغنائم بلغ ثلاثين ألفاً، وكان ذلك وهماً من الكاتب الذي كتب لموسى، فلما وافى الكتاب عبد العزيز، قرأه، ودعا الكاتب، كاتبه الخاص، وقال له: ويحك، إقرأ هذا الكتاب؟. فلما قرأه الكاتب، قال: هذا وهم من الكاتب، كاتب موسى، فراجعه؟ فكتب عبد العزيز إلى موسى قائلاً: إنه بلغني كتابك، وتذكر فيه أنه قد بلغ خمس ما أفاء اللّه عليك ثلاثين ألف رأس، فاستكثرتُ ذلك، وظننت أن ذلك وهم من الكاتب، فاكتبْ إليّ بعد ذلك على حقيقة، واحذر الوهم؟

فلما قدم الكتاب على موسى، وهو بالقيروان، كتب إليه: «بلغني أن الأمير، أبقاه اللّه. يذكر أنه استكثر ما جاءه من العدّة التي أفاء اللّه عليّ، وأنه ظنّ أن ذلك وهم من الكاتب، فقد كان ذلك وهماً على ما ظنّه الأمير، والخمس، أيها الأمير، ستون ألفاً حقّاً ثابتاً، بلا وهم».

تقول الرواية، إن الكتاب لما أتى إلى عبد العزيز، وقرأه، امتلأ سروراً، وغبطة وحمداً للّه، وشكوراً[٢].

الإغارة على هوارة وزناتة:

ولئن كان موسى بن نصير قد بعث بولديه عبد الرحمن ومروان، إلى نواحي القيروان من أجل إخضاع المناوئة من البربر، فعادا بالفتح العظيم، والمال العميم، والفيء الذي أدهش عبد العزيز بن مروان، فإن عياش بن أخيل، أحد المقربين إلى موسى بن نصير، هو الآخر عاد بالأسلاب والغنائم، وبالسبي، وذلك لما كلفه موسى الذهاب إلى هوارة، وزناتة، في ألف فارس، فأغار عياش عليهم، وقتلهم،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٢.

(٢) نفسه ٢/ ٥٢.

وسبى منهم سبياً قيل: إنه بلغ خمسة آلاف رأس، وقيل: إن زعيم هوارة وزناتة من البربر كان اسمه كمامون، وقع في من وقع في الأسر بين أيدي الفاتحين، فبعث به عياش إلى موسى بن نصير، فبعث به هذا إلى عبد العزيز بن مروان في وجوه الأسرى، فأمر عبد العزيز بقتل كمامون، فقتل عند البركة التي عند قرية عقبة، فسميت بركة كمامون. أما عياش فإنه ما نفكّ يغير على هوارة وزناتة، ويذيقهما من بأسه، وشدة إيلامه إياهم، ما دفع أهليهما إلى الدعوة إلى الصلح، فقدم بهم عياش إلى موسى، وفي المقدمة وجوه القوم الداعون إلى الصلح، فقبل منهم موسى هذا، وصالحهم، وأمر بإخراجهم من دياره، والعودة بهم إلى ديارهم، وقد لانت عريكتهم، وخلدوا للراحة والدعة آمنين مطمئنين[١].

الإغارة على كتامة:

ومن فتوح موسى بن نصير في شمال أفريقية فتحه بلاد كتامة البربرية، وكانت كتامة لما سمعت بهزيمة هوارة وزناتة، كانت قد قدمت على موسى بن نصير طواعيةً، فصالحته، وولّى عليهم موسى رجلاً منهم، آخذاً منهم العهد والرهن، وعدم الانتقاض على جيوش المسلمين، لكن الذي حدث إثر ذلك هو أن أحد رجالات كتامة كتب إلى موسى بن نصير، كتاباً يظهر فيه خضوع كتامة واستكانتها له، ويذكر فيه أن أحدهم قتل صاحبه، وأنه هو خير لموسى منه، فلما وصل الكتاب إلى موسى بن نصير لم يشكّ أن ذلك إنما هو ضرب من الممالأة التي كانت تبديها كتامة، وقد كانت رهون كتامة استأذنوا موسى قبل ذلك بيوم ليتصيّدوا، فأذن لهم موسى، فلما أتاه ما تحقق ظنّه فيهم، وأنهم إنما هربوا، وولّوا فراراً منه، وجّه موسى إليهم الخيل، وأمر بطلبهم وإحضارهم في الحال، فأُتي بهم إليه، فأراد أن يصلبهم لإفسادهم في الأرض، ولنكثهم العهد، لكن جماعة منهم اعترضت على ذلك قائلة: لا تعجل، أيها الأمير، بقتلنا حتى يتبيّن لك الأمر، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً، ونحن في يدك، وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل، فأوقرهم موسى حديداً، وأخرجهم معه إلى كتامة، وهو على رأس العساكر، فلما بلغهم خروج موسى بن نصير بنفسه إليهم، تلقاه وجوه كتامة معتذرين، فقبل عذرهم، وعفا عنهم، من بعد أن تبيّن له براءة العديد منهم[٢].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٤.
(٢) نفسه ٢/ ٥٤.

فتح صنهاجة:

تعدّ صنهاجة من قبائل البربر التي كان يُحسب لها ألف حساب، كيف وهي التي كانت تضمّ في صفوفها العديد من نخبة الرجال، وأشدّاء الفرسان الشجعان، وكانت تسيطر على منبسطات وجبال بالكاد يعرف حدّها أحد، تقول الرواية إن جواسيس وعيوناً لموسى بن نصير، أتوه فقالوا له: إن صنهاجة بغِرّة منهم وغفلة، وإن إبلهم تنتج، أي تلقح فتولد، ولا يستطيعون براحاً، وإن الصنهاجيين ما برحوا يغيرون على نتاج حيواناتهم، وغلال زروعهم، شكوى استمع إليها موسى بن نصير بكلّ يقظة وإحساس، وفي الحال أمر بتجهيز الجيش، وإعداد العدّة، فكان في صفوف جيشه الذي تقدمه وقاده بنفسه، أربعة آلاف من أهل الديوان، وألفان من المتطوّعة وعدد غير يسير من قبائل البربر التي كانت دخلت في الدين الجديد، وقد خلّف موسى عيّاشاً بن أخيل على أثقال المسلمين وعيالهم في ألفي فارس بظبية، وكان على مقدمة الجيش، جيش موسى الذي قاده بنفسه، عياض بن عقبة بن نافع، وعلى الميمنة المغيرة بن أبي بردة، وعلى الميسرة زُرعة بن أبي مدرك، فلما أتمّ العدّة، وأعدّ الخطّة، وسدّدها، سار موسى حتى غشي صنهاجة، ومن والاها، أو حالفها، أو كان معها من قبائل البربر، أدركهم بحيث لا يشعرون، على غرّة من أمرهم، فأعمل فيهم السيف، فقتل من قتل، وسبي من سبي حتى أنه قيل: إنّ السبي بلغ يومئذٍ مائة ألف رأس، ومن الإبل والغنم والبقر والخيل والبغال، والحرث والثياب ما لا يحصى، ثم إنه، أي موسى، قفل إلى القيروان، وقد خضع له كل صنهاجي، ومن كان موالياً لصنهاجة... كان هذا في سنة ثمانين، بحسب رواية ابن قتيبة، فلما سمعت الأجناد بما فتح الله على موسى بن نصير، ولما علموا بما أصاب معه المسلمون من أسلاب وغنائم رغبوا في الخروج إلى الغرب، فخرج نحو مما كان معه، فالتقى المغيرة وصنهاجة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكتب الله لهم النصر، وغنموا غنائم كثيرة، وسبوا سبياً عظيماً قيل: إنه بلغ ستين ألف رأس[1].

فتح سجوما:

وفي رواية أوردها ابن قتيبة، أن موسى بن نصير وهو يجاهد الروم والبربر في الأصقاع الأفريقية، المتاخمة للقيروان، والبعيدة الموغلة في البعد عنها، استنجد بعساكر المسلمين المتواجدين في مصر، فجاءته النجدة، وكانت بقيادة

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٤.

عبد اللّه بن موسى، في طليعة الجيش الذي خطب فيه موسى بن نصير مستنجزاً الوعد، محرّكاً المشاعر والهمم، مستشعراً عظيم ما قد يكتنف الفاتحين المجاهدين من أهوال، محرّضاً على المضيّ قُدُماً في سبيل إعلاء كلمة اللّه، ولمّا استكمل موسى غايته من البلاغ والحثّ على الجهاد، استخلف على القيروان عبد اللّه بن موسى، وخرج هو بنفسه في عشرة آلاف من المسلمين، وكان على مقدمة العسكر عياض بن عقبة بن نافع، وعلى الميمنة زرعة بن أبي مدرك، وعلى الميسرة المغيرة بن أبي بردة القرشي، أما الساقة، ساقة الجيش فكان عليها نجدة بن مقسم، وأما اللواء فأعطاه موسى لابنه مروان، وهكذا سار موسى بهذا الجيش المنظّم أحسن تنظيم أياماً وليالي حتى إذا ما وصل إلى موضع يعرف بسجن الملوك، خلّف موسى به الأثقال، وتجرّد في الخيل، وكانت الأثقال بعهدة عمرو بن أوس على رأس ألف من المقاتلة، ولما وصل موسى إلى نهر يقال له نهر ملوية، وجده خاملاً، فكره طول المقام عليه خشية نفاد الزاد، ونضوب الماء، أو تغيّر لونه وطعمه، وحذراً من أن يبلغ العدوّ مكانه ومخرجه، فأحدث مخاضة غير تلك التي كان أحدثها من قبلُ عقبةُ بن نافع وكره أن يجوز عليها[1].

وتتابع الرواية التي أوردها صاحب «الإمامة والسياسة»، فتقول: إن موسى بن نصير لما أجاز مخاضة النهر، عند المحلّة المعروفة بسجوما فوجئ بالعدوّ، وكان في جُلّة من البربر، قد أعدّ العدّة والعدد والسلاح والخيل لملاقاة موسى، وإن هي إلا ساعة والتحم العساكر بعضهم ببعض، واشتدّ القتال أكثر ما يكون عند السفح من أحد الجبال العالية، بحيث إنه كان من الصعب الوصول إلى أولئك الجند إلاّ من منافذ وأبواب معلومة... استمر القتال على أشدّه طيلة أيام الخميس فالجمعة، فالسبت إلى العصر، وقد أنهك الطرفان أو كادا، لما خرج من فسطاط العدوّ رجل ضخم الهامة، مهيب الطلعة، مدجّج بالسلاح، فوقف بين الصفّين، ونادى بالمبارزة، أي طلب أن يخرج إليه من جند موسى أحد الفرسان، فيبارزه، فمن غلب كانت الغلبة للجند الذي ينتسب إليه هذا الفارس...

نادى هذا الفارس بالمبارزة، ثانيةً، فلم يجبه أحد، فالتفت موسى إلى ولده مروان قائلاً له: أخرج إليه، بنيّ، فخرج إليه مروان دافعاً باللواء إلى أخيه عبد العزيز، فلما رآه الفارس استصغر سنّه، فقال له هازئاً: ارجع إلى أبيك، فإني أكره أن أعدم منك أباك[2].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٥.

(٢) نفسه ٢/ ٥٥.

موقف يذكرنا بالموقف الذي كان وقفه عمرو بن ودّ العامري، فارس بني عامر، في وقعة الأحزاب لما نادى في جيش محمد ﷺ الإسلامي: هل من مبارز، هل من مبارز؟ فسكت القوم جميعاً إلاّ عليّ بن أبي طالب، وكان صغير السنّ، فخرج إليه متحدّياً جبروت عمرو وهيبته، فلما نظر إليه عمرو استصغر سنّه، وقال: إني لأكره أن أقتل غلاماً حدث السنّ مثلك ـ على سبيل الاستهزاء[١] ـ.

وكان ما كان من هزيمة عمرو، ومصرعه، وانتصار المسلمين مما ليس هنا مجال التوسع فيه.

والمهم أن هذا العلج البربري لما تحدى جيش موسى بن نصير طالباً المبارزة، فخرج إليه مروان، وما لبث أن حمل عليه حملة صاعقة ردّته على أعقابه إلى حضن الجبل الذي كان يتحصّن فيه، لكن سرعان ما أخذ هذا البربريّ مزراقاً، أي رمحاً، فزرق به مروان، فتلقّاه مروان بيده، فأخذه، فحمل به على البربري الضخم، فزرقه به زرقة وقعت في جنبه، ثم لحقت حتى وصلت إلى جوف برذونه، أي بغلته، فمال على جنبه، فوقع البرذون به، فانكبّ المسلمون عليه، وعلى حاشيته، وجنده، فاقتتلوا قتالاً شديداً أنساهم ما كان قبله، لكن الثمن كان هو النصر المؤزّر للمسلمين، وكان الفتح المبين[٢].

ولقد انجلت تلك المعركة، معركة سجوما، عن قتل ملك البربر، وفرار العديد من جنود العدوّ، ووقوع العديد الآخر منهم في الأسر، أما السبي فبلغ مائتيْ ألف رأس، من بينهم بنات ملك البربر ابن لعزم، وبنات أعيان البربر وخيرة قوّادهم، وكنّ من أجمل النسوة، وأسلسهنّ ممّن لا يقدرّن بثمن ولا قيمة[٣].

مروان يصطفي ابنة ملك البربر:

ولمّا استعرض موسى بن نصير هذا السبي العظيم، وقد بهره الفتح، وأخذ بمجامع فؤاده النصر، ولفت نظره أكثر ما يكون، فنظر النسوة اللائي سُبين، وكنّ من بنات أشراف الملوك، ما دفع موسى إلى المناداة على ولده مروان، وهو الذي أبلى ذلك البلاء، وأظهر من ألوان الشجاعة والبطولة ما لا يوصف. ناداه قائلاً له: أي بنيّ، اخترْ من تشاء من هؤلاء النسوة، بين ثيّب وبكرٍ فاختار ابنة ملك البربر، فاستسرّها، أي اتخذها سريّة، يعني مملوكة، فتزوج بها، فولدت له عبد الملك[٤].

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ١/ ٢٢٥.
(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٥.
(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٥.
(٤) نفسه ٢/ ٥٥.

زرعة يحمل على أعناق الرجال:

هذا، بخصوص مروان، قاتل ملك البربر، أما زرعة بن أبي مدرك قائد ميمنة جيش موسى بن نصير، وهو الآخر قاتل قتال الأبطال، وأبلى في الحرب بلاءً ما بعده بلاء، فإنه ولسوء حظّه، ما كان لينعم بأيّ من السبي، وذلك لأنه، وخلال القتال اندقّت ساقه حتى كادت أن تسحق وتتفتّت، ما جعل موسى يألو على نفسه أن لا يحمل زرعة إلا على رقاب وأعناق الرجال، حمله خمسون رجلاً، كانوا يتناوبون حمله، ويتعاقبون بينهم، حتى دخلوا به القيروان(١).

فتح، لا كالفتوح:

قد يقول القائل: إن فتح قيسارية من أعمال الروم زمن عبد الملك بن مروان في سنة ٧١هـ، وفتوح أرمينية الكبرى في سنة ٧٢هـ، وفتح كرمان من بلاد السند وسجستان في سنة ٧٤هـ، وغزوة الصائفة على مرعش بقيادة محمد بن مروان سنة ٧٥هـ، والثانية في سنة ٨٢هـ، وغزوته الثالثة التي انتهت بفتح الروم ناحية ملطة في سنة ٧٦هـ، وفتوحات المهلب بن أبي صفرة لبلاد ما وراء النهر، من بعد أن اجتاز نهر بلخ، ونزل على كش، في سنة ٨٠هـ، وفتح مصيصة من بلاد الروم، بقيادة عبد الله بن عبد الملك، في سنة ٨٤هـ، وفتح المفضل بن المهلب لبادغيس، من أعمال هراة، ومرو الروذ، في سنة ٨٥هـ. .

قد تكون هذه الغزوات والفتوحات التي كانت جميعها زمن عبد الملك بن مروان، في عمق البلاد الآسيوية إلى الشرق، وإلى الشمال، قد تكون أعظم وأوسع وأعمق من تلك التي قام بها موسى بن نصير في البرّ الأفريقي. . . هذا صحيح، لجهة المبدأ، لكن في الواقع، إن السبي الذي كان يبعث موسى بن نصير به إلى عبد الملك بن مروان، والأموال التي كان يرسلها إليه، تفوق كثيراً ما كان يرسله إليه فاتحو بلاد آسيا شمالاً وجنوباً، وحسبك أن تعرف أن موسى بن نصير لما دانت له بلاد أفريقيا زمن عبد الملك بن مروان، وقد كان يبعث إلى سيّده عبد العزيز بن مروان أمير مصر بالفتح بعد الفتح، أقول حسبك أن تعرف أن سباياه ملأت الأجناد، فتمايل الناس إليه، وتزاحموا عليه رغبة فيما هنالك لديه. . . وحسبك أن تعلم أن عبد الملك بن مروان لطالما كان يقول إذا جاء فتح موسى: لتهنك الغلبة أبا الأصبغ!

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٦.

ثم يعقب على ذلك بالقول: عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، إشارة منه إلى أنه كان كارهاً تولية موسى بن نصير، هذا في بادئ الأمر، لكن سرعان ما تغيّر حاله، من بعد أن راح موسى يبعث إليه بذلك السبي العظيم[١]

وحسبك أن تعلم أن موسى بن نصير لما غنم هذا الغنم، وفتح ذلك الفتح، وجه بهذا الفتح إلى عبد العزيز بن مروان، مع علي بن رباح، فسار علي حتى قدم على عبد العزيز بمصر، فلما قدم عليه أجازه، وزاد في عطائه عشرين ديناراً، فلما انصرف من عنده، وجاء عبد العزيز سأله هذا: كم زادك أمير المؤمنين؟ قال: عشرين. قال: لولا كره أن أفعل مثل ما فعل لزدتك مثلها، ولكن تعدّ لها زيادة عشرة، بحيث تصبح الزيادة ثلاثين ديناراً، لا عشرين.

ثم إن عبد الملك قد كتب إلى موسى يعلمه أنه قد فرض لجميع ولده في مائة، أي أمر بأن يعطى لكل ولد من أولاد موسى مائة دينار من المال الذي أفاء الله عليه من أموال الروم والبربر المحاربين. هذا، وقد فرض عبد الملك لموسى ما بلغ به هو إلى المائتين، ومثل هذا في مواليه، وفي أهل الجزاء والبلاء ممّن معه خمس مائة رجل ثلاثين ثلاثين.

ولقد كتب عبد الملك إليه إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف التي أغرمها لك، فخذها من قبلك من الأخماس[٢]

فلما قدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى موسى بن نصير، وفيه يأمره بأخذ المائة الألف مما قبله، قال موسى: إني أشهدكم أنه ردٌّ على المسلمين، ومعونة لهم، وفي الرقاب، أي في عتق الرقاب والأسارى والمملوكين والعبيد، كيما يأخذ هؤلاء من هذه الآلاف العشرة فيعطون سادتهم ومالكي رقابهم منها ما يحرّرهم من الأسر والعبودية[٣].

خلق موسى:

وكان موسى بن نصير إذا أفاء الله عليه شيئاً، اشترى من ظنّ منهم أنه يقبل الإسلام، وينجُب، أي يصير نافعاً للمسلمين، فيعرض عليه الإسلام، فإن رضي قبله من بعد أن يمحص عقله، ويجرّب فهمه وفطنته، فإن وجده ماهراً أمضى عتقه وتولّاه، وإلاّ ردّ المال في الخمس والسهام.

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٦.

(٢) نفسه ٢/ ٥٦.

(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٧.

ومن خلق موسى بن نصير، في هذا المقام، ولقد يتنافى وما سلف أنه لما فتح الفتوحات وأيّده اللّه بالنصر المبين بعث إلى عياض، وعثمان، وعبيدة، بني عقبة بن نافع، الفاتح المشهور، فقال: اشتفوا، وضعوا أسيافكم في قتلة عقبة أبيكم.

وبالفعل قتل عياض من القوم ستّ مائة صبراً، من خيارهم وكبارهم، فأرسل إليه موسى أن أمسكْ، فأمسكَ، وقال: أما، واللّه، لو تركني ما أمسكت عنهم، وفيهم عين تطرف[١]

ترسانة موسى البحرية:

لقد اتخذ موسى بن نصير من القيروان قاعدة لمعظم غزواته وفتوحاته، يغزو البلاد، ويدوّخ الأمصار، ويجاهد البربر والروم، ثم يرجع إلى القيروان التونسية متخذاً منها منطلق أعماله وجهاده وبنائه..

وإن من هذه الأعمال العظيمة التي قام بها موسى، وكان قد أقام بالقيروان إثر رجوعه من إحدى الغزوات، أن أمر بإقامة دار للصناعة بتونس، وهي عبارة عن ترسانة بحريّة تأوي السّفن إليها، وتكون مصنعاً لبناء السفن، وتجهيزها بالعتاد والسلاح، نعم أمر موسى بإقامة تلك الترسانة، وبأن يجرّ ماء البحر إليها، بأن يحفر قناة واسعة توصل مياه البحر إليها، إلى الداخل، وذلك من أجل حمايتها، والزيادة في أمن السفن من هبوب عواصف البحر وأنوائه ورياحه التي قد تشتدّ فتلوي بأشدّ الفُلك والمراكب إن كانت معرّضة لها من دون سياج، أو رصيف يحميها في البرّ، ولو من جهة واحدة على الأقل.

هذا ما أمر به موسى بن نصير وهو في القيروان ما جعل الناس، في حينه، تستفظع الأمر، وتعجب منه، قائلة:

هذا أمر لا نطيقه، ما جعل موسى يعيد التفكير في الإقدام على هذا العمل، وفيما هو مطرق في حيرة من أمره، إذ بأحد رجال البربر ممّن كانوا دخلوا في الإسلام، فحسُن إسلامهم، يتقدّم من موسى ليقول له:

إعلم، أيها الأمير، إنه قد مرّ عليّ مائة وعشرون سنة، وإن أبي كان حدّثني أن صاحب قرطاجنة لما أراد بناءها، وبناء قناتها، جاءه الناس معظمين عليه ذلك، فقام إليه رجل منهم فقال: أيها الملك، إنك إن وضعت يدك بلغت منها حاجتك،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٧.

فإن الملوك لا يعجزها شيء بقوّتها وقدرتها، فضع يدك أيها الأمير ـ يريد موسى ـ فإن اللّه تعالى سيعينك على ما نويت، ويأجرك فيما توليت[١]

خاطب البربري موسى هذا الخطاب، ثم قعد، وموسى يستمع إليه، فأجال فكره قليلاً في كلام الرجل، وكان أعجبه كثيراً، وسرّه كثيراً، فوضع موسى يده، فبنى دار الصناعة بتونس، وأمر بجرّ مياه البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلاً، قناة طويلة جدّاً وصلت ما بين عمق البحر وبين البرّ، ما مكّن السفن فيما بعد من أن تلج فيها، وترسو في الميناء بأمان وطمأنينة، وفي منجى من هبوب الأنواء والرياح. . .

وهكذا، قامت دار الصناعة بتونس، فصارت مشتى المراكب، ومأوى السفن، ثم إنه أمر بصناعة مائة مركب، فأقام بذلك بقيّة سنة أربع وثمانين للهجرة[٢]

دار صناعته:

ولقد أدّت هذه الدار التي أنشأها موسى بن نصير، عنيت دار صناعة تونس، أدّت خدمات جُلّى للمسافرين في البحار، وللمراكب والسفن، وللذين كانوا يخاطرون بأنفسهم وبمن معهم، وبأموالهم التي يحملونها، في ركوب البحر، في غير الوقت الملائم، وإن من هذا ما حصل لعطاء بن أبي نافع الهذلي لما جاء ومعه مراكب أهل مصر، يقودها، مبعوثاً من قبل عبد العزيز بن مروان، باتجاه سردانية، فأرسى عطاء بسوسة الأفريقية، فأخرج إليه موسى الأسواق والأرزاق، وكتب إليه أن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت، من هذا العام، كتب إليه محذّراً ومنبّهاً، عارضاً عليه أن يودع ما يحمل من بضائع ومراكب في دار الصناعة التونسية، لكنّ عطاء ركب رأسه، وشحن مراكبه، وأقلع دونما إعارة أي اهتمام لنصائح موسى، وسار عطاء في البحر حتى أتى جزيرة سلسلة، فدخلها فاتحاً ظافراً، وأصاب فيها مغانم ورزقاً وفيراً، وحصل على جواهر ومعادن وحليّ من ذهب وفضّة، لكن، وهو في الطريق منزعجاً عن الجزيرة هبّت على مراكبه، وهو في البحر، ريح عاصفة، وثارت في وجهه أنواء ما عُهد مثلها من قبل، فغرق عطاء ومن معه، وأصاب الناس هول عظيم، وطرح الموج العاتي العديد من مراكب عطاء بمن فيها، وما عليها، فوقع بعض المراكب بسواحل البرّ الأفريقي، فلما بلغ ذلك موسى بن نصير، وجّه للتوّ أحد قوّاده الشجعان، واسمه يزيد بن مسروق،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٧.

(٢) نفسه ٢/ ٥٧.

أرسله إلى سواحل البحر، في ثلّة من الخيل والفرسان، فراح يزيد يفتش على ما يلقي البحر من المراكب والسفن، مراكب عطاء بن رباح وأصحابه، فأصاب تابوتاً منحوتاً فيه الجواهر والدرر، قيل: إن سبب ثراء وغنى مسروق فيما بعد، كان ذلك التابوت. وقيل: إن يزيد بن مسروق لقي، في تلك الحادثة، شيخاً متوكئاً على قصبة له، فذهب ليفتشه، فنازعه، فأخذ القصبة من يده، فضرب بها عنقه، فانكسرت، فتناثر ما كان في جوفها من لآلئ وجواهر ودنانير، ثم إن موسى بن نصير أمر بتلك المراكب التي سلمت من هياج البحر، أمر بها، وبمن نجا من ركابها وقباطنتها، أمرهم بدخول دار الصناعة بتونس، فراحوا يعملون على إصلاح مراكبهم، وتدارك ما فاتهم، بانتظار تحسّن الطقس، وركود الريح، وهدوء العاصفة[1].

غزوة الأشراف:

وهي أول غزوة غزاها موسى بن نصير في البحر الأفريقي الشمالي، حدث هذا في ما بعد سنة خمس وثمانين للهجرة إثر بنائه دار الصناعة، بحيث إنه أمر الناس بالتأهب لركوب البحر، وكان أعلمهم أنه راكب البحر فيه بنفسه، مرغباً إياهم على اقتحام أهوال البحار، فتسارعت الناس من كل فج وصوب، وحدب، وأتوا موسى بنيّة الذهاب معه في البحر، في سبيل اللّه، وكان على رأس كل وافدة من الناس زعيم القوم، أو قل شريف القوم، بحيث إنه، وكما تقول الرواية، لم يبق شريف من أهل القيروان، وتونس، وما جاورهما، إلاّ وقد ركب أحد المراكب المعدّة لهذه الغزوة، وفيما كان الناس ينتظرون صعود موسى ليركب بنفسه، دعا موسى برمح، فعقده رايةً لولده عبد اللّه وأمره أن يكون هو الوالي عليها، والآمر الناهي، لا ينازعه أحد من الخلق، وفي أقل من ساعة كان عبد اللّه قد أقلع بالسفن، وبمن معه، حتى من قبل أهل النكاية والجلد والشرف، من هنا سمّيت تلك الغزوة بغزوة الأشراف، وسار عبد اللّه بمراكبه رهواً في البحر، باتجاه البرّ الأوروبي، حتى إذا ما وصل صقلية، حاصرها، ففتح إحدى مدنها، فأصاب منها مالاً وغنائم كثيرة وزّعها على رجاله ومحاربيه بحيث أن سهم الرجل بلغ مائة دينار ذهباً، مبلغ كبير نسبيّاً، وخصوصاً إذا علمت أن عديد رجاله من المسلمين المحاربين الفاتحين كان يتراوح ما بين تسعمائة وألف[2].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/٥٨.

(٢) نفسه ٢/٥٨.

متابعة الفتح :

إبّان حصار إحدى مدن صقلية، ثم افتتاحها عنوةً، والحصول على مغانمها وأرزاقها، من قبل عبد اللّه بن موسى بن نصير، يأتي خبر تولية الوليد بن عبد الملك[1]، وتسلّمه مقاليد الخلافة من بعد عبد الملك بن مروان، أبيه، كان هذا في سنة ستّ وثمانين، فما نكص موسى، ولا تردّد في استكمال الفتوحات، وتجهيز الجيوش، وتعبئة المسلمين، إذ، وبمجرّد أن انتقلت الخلافة إلى الوليد، أرسل موسى بالبيعة له، والانقياد لأوامره، وشفع هذا كله بالفتح الذي فتحه اللّه على ولده عبد اللّه، وبالفيء الذي أفاءه عليه. . ليس هذا، فحسب، بل إن موسى أرسل زرعة ابن أبي مدرك في طلب جماعة من البربر، عصوا أمر الخليفة، وواليه عليهم، فأدركهم زرعة في ثلّة من المقاتلة، فما لقي من البربر حرباً، بل قابلوه بالصلح، فصالحهم، وأمر برؤوس القوم، فوجّههم إلى موسى، فأعطاهم هذا الأمان، وقبض رهونهم.

فتح سرقوسة :

ثم إن موسى بن نصير، وقد جرّب جنده البحر، وظفر ولده عبد اللّه بالعدوّ المنتشر في الجزر، وذاق طعم النصر والفيء والغنائم، إن موسى استدعى عياش بن أخيل، فكلّفه مهمة ركوب البحر، ليتابع سياسة الفتح، واضعاً في حوزته عدداً لا يستهان به من خيرة رجال البربر المسلمين الأشداء، فكان يغزو صيفاً وشتاء، وفي إحدى غزواته الشتوية أصاب مدينة في البحر يقال لها سرقوسة، فقهرها، وعاد عنها غانماً محمّلاً بالفيء[2].

---

(١) إثر موت عبد الملك بن مروان، وكان عهد قبيل وفاته، بالخلافة إلى أخيه عبد العزيز بحيث يكون الخليفة في مماته، من بعده، ووليّ العهد في حياته، وكان عبد الملك تنازعه نفسه في خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد، وتولية ابنه الوليد، ولما أن جاءت الأخبار حاملة موت عبد العزيز، وكان والياً على مصر، انفرجت هموم عبد الملك، وانقشعت غيوم تخبطه في من يولّي من بعده، فعهد بولاية مصر إلى عبد اللّه بن عبد الملك، وهكذا أضحت مصر بيد ابن الخليفة الأموي، من بعد أن كانت بيد أخيه. أما خلافة المسلمين فإن عبد الملك أمر الناس بالبيعة لولديه الوليد وسليمان، فلما توفي عبد الملك، تسلّم الحكم الوليد الذي أصرّ على متابعة سياسة الفتوح، وغزو الثغور، وشن الغارة على أعداء اللّه بحسب تعبير صاحب الكامل.

(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٨.

فتح سردينية:

وفي سنة تسع وثمانين من الهجرة أمر موسى بن نصير عبد اللّه بن مرّة، فأتاه بطالعة من أهل مصر، فعقد له على بحر أفريقية، فركب البحر، حتى وصل سردينيا، فحاصرها بعض الوقت، إلى أن تمكن من أن يفتتح بعضاً من مدائنها، وسبى خلقاً كثيراً منها، قيل: إنه، أي السبي، بلغ ثلاثة آلاف رأس، هذا فضلاً عمّا غنمه من الذهب والفضة، ومن المال والحرث(١)

غزوة السوس الأقصى:

وفي السنة عينها، أي سنة تسع وثمانين للهجرة، وهي السنة التي كان غزا فيها عبد اللّه بن مرة بطالعة مصر، وجه موسى بن نصير ولده مروان، وكلفه بمهمة غزو السوس الأقصى، في أقصى الغرب، فعقد له الراية، وسار في خمسة آلاف من الجنود المقيدين في ديوان الدولة، هذا عدا المتطوعة من المسلمين الذين كانوا في الذروة من الحماسة والاندفاع، وقد تعجّلوا قتال العدوّ، فلما وصلوا إلى السوس، وكان عليها ملك اسمه مزدانة الأسواري، نازله مروان بنفسه، وبيمينه القناة، وبيسراه الترس، ففرّ من وجهه، لكن جماعته ثبتوا في الميدان، فاقتتلوا هم والمسلمون قتالاً شديداً، كانت خاتمته النصر للمسلمين، والهزيمة للأعداء المغاربة من البربر والروم، وكان السبي، على ما جاء في «شذرات الذهب» سبي البربر والروم أربعين ألف رأس، هذا فضلاً عما غنموه عن مال وحرث(٢)

وفي رواية صاحب الفتوح أن موسى بن نصير لما حصّن القيروان، وبنى دار الصناعة، وأمر بصنع السفن والمراكب، راح يطارد فلول البربر والروم حتى أدركهم في السوس الأقصى، فكان قائد جيشه عياض بن عقبة بن نافع، ومن بعده جاء ولده مروان، ليكون قائد معركة السوس الأدنى، لا الأقصى(٣)

الاحتيال على صاحب قلعة أرساف:

ولقد يظن بعضهم أن موسى بن نصير ما عرف في فتوحاته إلاّ الشدّة واستخدام سياسة البطش والفتك بالأعداء، كلاّ، بل هو قائد عرف كيف يكون شديداً في موضع الشدة، وليّناً في موضع اللين، ولم تكن تنقصه الحيلة، أو قل

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٨.
(٢) شذرات الذهب ١/ ٩٨.
والإمامة والسياسة ٢/ ٥٩.
(٣) فتوح مصر والمغرب والأندلس ٢٧٠.

الحنكة السياسية، والدهاء، يستخدمه حيث يجب الدهاء، وهذا ما فعله مع صاحب قلعة أرساف بالمغرب الأقصى، وكانت ثغراً حصيناً على مشارف البحر الرومي، وكان صاحب هذا الحصن أو القلعة الموكل بحراستها وحمايتها، يتخذ منها، بأمر من ملك الروم الأعظم، منطلقاً للإغارة على طول الساحل الأفريقي الشمالي الغربي، ما كان يعيق تقدم الجيوش الغازية المسلمة أحياناً... وحدث أن أغار صاحب القلعة يوماً على الساحل الأفريقي فقتل من المسلمين البربر مقتلة، فلما بلغ خبره موسى بن نصير، خرج إليه موسى بنفسه، وتبعه فما أدركه، فاشتدّ ذلك عليه، وقال: قتلني الله إن لم أقتله وأنا هنا مقيم... ثم إنه دعا رجلاً من أصحابه فقال له: إني موجهك في أمر، وليس عليك فيه بأس، ولك عندي فيه حسن الثواب، خذ هذين الخرجين بما فيهما، ثم سربهما، وبمن معك من الرجال، حتى تأتي الموضع الفلاني، وسمّاه له، في المكان المعيّن، فإنك واجد كنيسة للروم، اتخذوا منها معبداً، وأقاموا فيها احتفالاً وعيداً لهم، فإذا جئتك الليل، فادن منها، ودع أحد هذين الخرجين بما فيه، ثم انصرف إليّ بالخرج الآخر... هذا وزوّد موسى هذا الرجل بقيّة من الخزّ والوشي، وبمجموعة من طرائف العرب، مما قلّ وزنه وغلا ثمنه، وكتب كتاباً بالرومية جواباً عن كتاب كان كتب به إلى موسى ملك الروم يسأله فيه الأمان على أن يدلّه على عورة الروم، وكان كتاب موسى الذي يضمّ الأمان مطبوعاً طباعة، فسار الرجل حتى وصل إلى الموضع الذي كان وصفه له موسى، فترك الخرج عنده، ثم انصرف راجعاً بالخرج الآخر، وغذّ السير حتى قدم على موسى بن نصير الذي كان ينتظره على أحرّ من الجمر.

وبالعودة إلى الخرج الذي تركه في الموضع المعيّن المتفق عليه عند الكنيسة، فإن هذا الخرج الذي كان ملقى على قارعة الطريق، عثر عليه جماعة من المصلّين، فأوجسوا منه خيفةً، فحملوه إلى بطريق تلك الناحية، فأخذه هذا، وافتضّ ما فيه، فلما رأى ما فيه من الكتب والهدية، هاب ذلك، فبعث به، كما هو، للتوّ، إلى ملك الروم الأعظم، فلما أفضى الخرج إليه، وقرأ الكتب تحقق ذلك عنده، فبعث إلى أرساف، الحصن المتقدم الذكر، بعث إليه رجلاً من خاصة قادته، وملّكه عليه، وأمر أن يضرب عنق صاحب أرساف الذي طالما أغار على سواحل أفريقيا، مزعجاً المسالمة من البربر والعرب وغيرهم، وهكذا قُتل صاحب القلعة بتدبير، وحنكة، وحيلة، من موسى بن نصير. هذا ما أورده صاحب «الإمامة والسياسة» في تاريخه الشهير[1].

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٠.

الفتوحات في أوجها:

إثر الفتوحات المظفرة التي أنجزها موسى بن نصير، في برقة، والقيروان التي اتخذ منها قاعدة إمارته، وقيادته، وولايته، وزعوان، وهوارة، وزناتة، وكتامة، وصنهاجة، وسجوما، وغيرها من البلاد والمناطق والأمصار والحواضر الأفريقية المتاخمة للمتوسط الأبيض وغير المتاخمة له، الضاربة في عمق البرّ الأفريقي. . . وبعد أن دانت له قبائل البربر، في معظمها، بالطاعة، ودخل العديد منهم في الإسلام، لا بل إن التلاحم بين العرب والبربر، إثر فتح السوس الأقصى، أضحى سمة مميزة، وعلامة فارقة، يدلّ على ذلك بلاء العساكر في الفتوح المشتركة التي كانت تضمّ العرب والبربر معاً[1] هذا من بعد معارك ونزاعات بينهما لطالما أخّرت تقدم الفتح، وتحقيق النصر. . . وما كان هذا، ربّما، ليحصل لولا القوة التي أظهرها موسى بن نصير، وسياسة البطش والشدة، والملاينة والمسايرة التي أظهرها معاً، كل هذا من أجل استجلاب البربر خاصة، ومن كان على غير دين الإسلام عامة، إلى صفوف المسلمين، وإلى الانضمام إلى وحدة المنضوين إلى الدين الجديد الذي أرسل الله سبحانه به محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً للعالمين. . . أقول إن الجيش الإسلامي الأول الذي قاده موسى بن نصير، وكان عماده المطوّعة من جند الشام، والطلائع من جند مصر، هو الذي حقق بعض تلك الفتوحات، لا كلّها، وما كان الفتح كله، وخصوصاً فتح الأندلس، كما سنرى لاحقاً، ما كان ليتحقق لولا انضواء البربر في الدين الجديد، واندفاعهم الذي لا يوصف في نشر لواء الإسلام فوق تلك الربوع، ولقد تجلى مثل هذا التلاحم العربي البربري أكثر ما يكون في طنجة لما افتتحها موسى بن نصير، ودخلها ظافراً، ففتحت له أبوابها، وأسلم أهلها طواعية أو كرهاً[2] تلاحم ما كان أحسنه وأروعه، إذ من بعد أن كان موسى يغزو بلاد البربر، فيقتل منهم خلقاً كثيراً، ويسبي منهم سبياً كثيراً، أضحى التلاحم العربي البربري سمة المرحلة، يقاتلون معاً جنباً إلى جنب، ويخوضون معارك الفتح معاً قلباً واحداً، ويداً واحدة، وهدفاً واحداً، وهذا ما سوف يحصل في فتح الأندلس من بعد[3]

أجل؛ لقد بلغت الفتوحات التي قادها موسى بن نصير في أفريقيا، سواء بنفسه أم بواسطة أولاده وأعوانه وخاصة قوّاده، بلغت الأوج إثر انتهاء جند مروان بن موسى

(١) فتوح مصر والمغرب والأندلس ٢٣٢.
(٢) نفح الطيب، للمقري ١/ ٢٢٠.
(٣) وفيات الأعيان ٥/ ٣٢٠.

إلى السوس الأدنى، من بعد السوس الأقصى، وإثر استسلام البربر، جميعاً مبدئياً، له، إذ بذلوا له الطاعة، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه، ما حدا بابن نصير العربي المسلم إلى تكليف مولاه طارق بن زياد البربري المسلم، بمهمة إدارة طنجة في البرّ الأفريقي، والمواجهة للبرّ الأندلسي شمالاً، خلفاً لولده مروان[1]

طارق بن زياد والياً على طنجة:

حصل هذا كله أو بعضه، أخيراً، أي فتح طنجة، وفتوح السوس الأدنى والأقصى، وغيرها من الفتوح التي مكنت موسى بن نصير وأولاده وأعوانه وولاته من بسط السيطرة شبه الكاملة على شمال البرّ الأفريقي من الشرق إلى الغرب، حصل هذا زمن كل من الخليفتين عبد الملك بن مروان، ثم ولده الوليد بن عبد الملك، وزمن عبد العزيز بن مروان، الأمير الأموي على مصر وما حاذاها، وتجاوزها، ثم زمن خليفته موسى بن مروان، وهكذا قرر موسى بن نصير، وقد دانت له البلاد الأفريقية بالطاعة، وانقادت له قبائل البربر تقاتل معه، وتفتح معه، من بعد أن دخلت في معظمها في الإسلام، قرّر موسى أن يرجع إلى الشرق، مستعملاً على طنجة مولاه طارق بن زياد البربري خلفاً لولده مروان. تاركاً عنده حوالي تسعة عشر ألفاً من أشدّ الفرسان البرابرة مع أسلحتهم التامة، مخلّفاً بعض العرب الفصحاء ليعلموا البربر القرآن، والفرائض، وفقه الإسلام، أقول عاد موسى بن نصير من بعد هذا، إلى الشرق من أفريقية، وما بقي بالبلاد، من بربر وروم، من ينازع موسى الحكم[2]

ذهول الوليد بن عبد الملك:

وكان لا بدّ لنبأ هذه الفتوح وللغنائم التي غنمها موسى بن نصير وأولاده وأعوانه، وولاته، من أن تصل إلى الشام، عاصمة الدولة الإسلامية، وقاعدة الحكم الأموي، كان هذا حقاً واجباً ومفروضاً لا على موسى بن نصير، وحده، بل على كل فاتح وغازٍ، وقائد، كان عليه أن يقدم على الخليفة بالفتح، حدّث بعضهم قال إن خادماً للوليد بن عبد الملك بن مروان أخبرهم أنه كان قريباً من الوليد بن عبد الملك، وبين يديه طشت من ذهب، وهو يتوضأ منه، لما أتاه رسول من قبل قتيبة بن مسلم[3]، من

---

(١) فتوح مصر والمغرب والأندلس ٢٣٢.

(٢) وفيات الأعيان ٥/ ٣٢٠.

(٣) قتيبة بن مسلم، من كبار قادة الأمويين. فتح بلاد ما وراء النهر وسمرقند وبخارى وفرغانة في عهد عبد الملك بن مروان، وقتل زمن الوليد بن عبد الملك.

الشرق، من خراسان بفتح من فتوحاتها، فأعلم الخليفة بذلك، فقال: خذ الكتاب منه، فأخذه الوليد، فقرأه، فما أتى على آخره، حتى أتى رسول آخر من قبل الغرب، من قبل موسى بن نصير، أتاه هذا الرسول بفتح السوس من قبل مروان بن موسى، فأعلمه به، قال: هاته، فقرأه الوليد، فحمد الله، وخرّ ساجداً لله حامداً، ثم التفت إلى الخادم، وقال له: أمسكْ الباب، لا يدخلْ أحدٌ. قال، وكان عنده ابنٌ له يحبو بين يديه، فلما خرّ الوليد ساجداً لله شاكراً، جاء الصبيّ إلى الطشت الذي كان يتوضّأ به الخليفة، فاضطرب فيه وصاح، فما التفت الخليفة إليه، علماً بأنه ابنه، لكن كان مذهولاً لفتوح موسى بن نصير، سادراً عن موضوع الغلام ووقوعه في الطشت. يقول هذا الخادم، إن الصبيّ وقع في الطشت فما التفتّ إليه، وما قدرت على أن أغيثه لما أمرني الخليفة به من إمساك الباب... يقول الخادم، أطال الوليد السجود، حتى خفي صوت الصبي، ثم رفع رأسه فصاح بي، فدخلت وأخذت الصبي، وإنه لما به روح[1]

رواية، قد تكون موضوعة كليّاً أو جزئياً، لكنها تشير، ولو من طرف يسير إلى أهمية الفتوحات الأفريقية على يد موسى بن نصير، وولديه، بمقدار ما تشير إلى وفرة الغنائم، والسبي العظيم الذي كان يبعث به موسى إلى أسياده الأمويين في الشام.

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٥٩.

الفصل الثاني

الحقبة الأندلسية

تمهيد

تعريف بالأندلس:

الأندلس، اسم أطلقه العرب على إسبانيا والبرتغال، أو قل على القسم الأكبر من ذينك البلدين، وذلك إثر فتحهما في سنة ٩٢هـ/ ٧١١م، من قبل موسى بن نصير، ومولاه طارق بن زياد البربري.

وفي المصادر القديمة إن أول من سكن الأندلس من بعد الطوفان قوم عرفوا باسم الأندلش ـ من هنا كانت التسمية ـ أو باسم الفندال، وتبقى التسمية صحيحة، أفسدوا في الأرض، فأصابهم القحط مائة عام، ثم غزاهم الأفارقة، فعمروها، ثم عصوا الله ثانية، فأقحطوا، ثم سلّط الله عليهم أقواماً من العجم، لا عجم الشرق، بل عجم الغرب، وهم أهل رومة، وكان ملكهم إشبان بن طيطش، من هنا كانت تسمية البلاد باسم إسبانيا[١]

إشبان ملك الأندلس:

وتتابع المصادر التاريخية العربية القديمة فتقول إن إشبان، هذا، وقد يطلق عليه اسم أصبهان، اتخذ إشبيلية في بلاد الأندلس عاصمة له، ومنها انطلق إلى الشرق، فغزا أورشليم، فقتل من أهلها مائة ألف من اليهود، وسبى مائة ألف رأس، وقام بنقل رخام القدس إلى إشبيلية[٢] رواية تتعارض والمصادر المتعددة التاريخية الأخرى التي تقول بأن بختنصّر، أو ما يعرف أيضاً باسم نبوخذ نصّر، ملك بابل من سنة ٦٠٥ إلى سنة ٥٦٢ق.م. هو الذي غزا أورشليم، فخرّب الهيكل، وسبى اليهود إلى بابل، كان ذلك في سنة ٥٨٦ق.م، وإن كان من أثر يذكر في صحة الرواية التي أوردها صاحب الروض المعطار، واعتمد عليها صاحب نفح الطيب، فهو أن إشبان بن طيطش، السالف الذكر، حضر فتح أورشليم مع نبوخذ نصّر، وجاء بالرخام إلى الأندلس من الشرق[٣]

(١) نفح الطيب ١/ ١٣٦.
(٢) نفسه ١/ ١٣٦.
(٣) نفح الطيب ١/ ٣٤.

ولقد يغلب خيال العامة على الواقعة التاريخية فتتحول إلى ما يشبه الخرافة أو الأسطورة إذ تقول الرواية إن الإسكندر المقدوني لما فتح ما بين البحر المحيط، أي الأطلسي، والبحر الرومي، أي المتوسط، لدفع الظلم الواقع في المغاربة من قبل الإسبان، حضر الخضر، النبيّ الحيّ، إلى المكان الذي كان موجوداً فيه إشبان المارّ الذكر وكان فقيراً، من قبل أن يصل إلى سدّة الملك، فبشّره بالغنى والفتح، وصنع له معجزة تمثلت بتحول عصا إشبان إلى شجرة، ما أوحى له أنه سيصل إلى ما بشره به الخضر، وبالفعل أضحى إشبان ملكاً، وحكم بلاد الإسبان حوالي عشرين عاماً. . . وأياً يكن، وإن طابع الوضع والخيال يغلب على هذه الرواية يدل على ذلك أن الإسكندر كما نعلم عاش في القرن الرابع قبل الميلاد فيما عاش إشبان، بحسب تلك الرواية زمن نبوخذ نصّر في القرن السادس قبل الميلاد[1]

لذريق آخر ملوك الإسبان:

أقول أيّاً يكن، فإن إشبان هذا، سرعان ما ذهب ملكه، فجاء عجم رومة، وجلّهم من البوشتولغات، يقودهم ملكهم طلويش، فاستولى على ملك الأندلس، متخذاً من ماردة عاصمة له، ثم جاء من بعدهم القوط، وهم شعب جرماني قديم استقرّ شماليّ البحر الأسود في القرن الثالث للميلاد، ثم انقسموا قسمين، قسم شرقي سيطر على قسم من البلقان، واتحدوا مع روما، وغزوا إيطاليا، وقسم غربي استقرّ في جنوب غربيّ فرنسا، وفي سنة ٤٧٦م. غزوا إسبانيا حيث أسسوا مملكة دامت حتى الفتح العربي. . . أقول إن القوط غلبوا على من كان في بلاد الأندلس، واتخذوا من طليطلة عاصمة لهم، من بعد أن دخلوا في النصرانية، وكان آخر ملوكهم لذريق، بالعربية، أو Rodrigo بالقوطية، وكان عدّة ملوك القوط في إسبانيا ستة وثلاثين ملكاً، آخرهم لذريق[2] وإن مدة ملكهم أو حكمهم في إسبانيا دام حوالي القرنين ونصف القرن، أو ما يزيد عن ذلك بقليل[3]

يوليان يمّهد لدخول العرب والمسلمين:

سبق حكم لذريق، ملك القوط الأندلسيين، حكم غيطشة، باللاتينية Witiza. هذا الملك الذي أعلن في عهده ثورة إصلاحية لصالح الشعب المكدود، ما أغاظ رجال الكنيسة الذين مدّوا يد العون إلى لذريق، ممهدين له السبيل

---

(١) الروض المعطار، للحميدي ص٣٤.

(٢) نفح الطيب ١/ ١٤٠.

(٣) المجمل في تاريخ الأندلس، لعبد الحميد العبادي، ص٣٣.

للإحاطة بغيطشة، وهذا ما حصل بالفعل، إذ تبوأ منصب غيطشة، باسطاً نفوذه على جنوب بلاد إسبانيا، لكن ولدين اثنين من أولاد غيطشة، لم يصبرا على هذا الإذلال، والقهر، فراحا يعملان سرّاً للإحاطة بملك لذريق بتوقيع معاهدة تعاون مع الأمويين، وكان واسطة عقد تلك المعاهدة، أو الحلف السرّي غير المعلن حاكم سبتة المغربية، تلك المدينة الواقعة على البرّ الأفريقي، وتتحكم بحركة السفن الداخلة أو الخارجة من مضيق جبل طارق الفاصل بين المغرب والأندلس، وكان اسم هذا الحاكم يوليان، من أصل بيزنطي مناهض للقوط الغربيين ذوي الأصول الجرمانية، أو اللاتينية، ومعادٍ لأسرة لذريق، وكان هذا الحاكم على صلة، بدوره، بطارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، والحاكم على طنجة، تلك المدينة الواقعة إلى الغرب من سبتة، وتشرف بدورها من جهة الغرب المحاذي للأطلسي، على مضيق جبل طارق الاستراتيجي، تقول الرواية إنّ يوليان، حاكم سبتة، أجرى اتصالاً بطارق بن زياد البربري، حاكم طنجة، والوالي عليها من قبل موسى بن نصير، وقال له: إني أدعو العرب والمسلمين إلى دخول الأندلس، وإني لواضع قدراتي في تصرفكم، وأنا الدليل لكم في هذا المشوار الطويل[1]

(١) البيان المغرب ٢/٦.

مبحث أول

فتوحات طارق بن زياد

الأمر بالفتح:

لا يمكن الحديث عن موسى بن نصير، إلاّ وحديث طارق بن زياد، مولاه، مقرون به، وملازم له، يحذو حذوه حذو القذّة بالقذّة.

كنا ذكرنا أن موسى بن نصير قد مكن للأمويين من أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأفريقي بأقسامه الثلاثة: الشرقي أو الأدنى، وحدوده مصر شرقاً، وتونس، حيث القيروان عاصمة موسى، ومقرّ ولايته، والمغرب الأوسط، وحدوده تونس شرقاً، ومعظم جمهورية الجزائر اليوم، والمغرب الأقصى، وحدوده الجزائر شرقاً، والبحر المحيط، أو المحيط الأطلسي غرباً، وهو عبارة عن مملكة المغرب اليوم، ويضم أهم الثغور البحرية الواقعة على المتوسط مثل سبتة ومليلة، وتلك الواقعة على الأطلسي والمتوسط معاً، مثل طنجة، أو على الأطلسي تماماً، مثل الرباط...

وكنا ذكرنا أيضاً أن موسى بن نصير اتخذ من القيروان مقرّ إقامته وولايته، ومنطلق فتوحه المغربية والأفريقية، وأنه اتخذ من طارق بن زياد، مولاه البربري، أميناً له، وحافظاً، وقائداً فوّض إليه الكثير من الصلاحيات الإدارية والسياسية والعسكرية، وحسب طارق أنه عيّن من قبل سيّده موسى حاكماً عاماً على طنجة المغربية وما والاها من الريف المغربي...

وكنا ذكرنا أيضاً أن موسى ظلّ وفياً لأسياده الأمويين، كان هذا حاله زمن الخليفة عبد الملك، وبقي على ما كان عليه زمن الوليد بن عبد الملك، مثلما كان وفيّاً كذلك لأمير مصر عبد العزيز بن مروان، ولعبد الله بن مروان من بعده.

وكنا ذكرنا أن المهمّة التي كلّف موسى القيام بها هي الفتح، وليس إلاّ الفتح، أي نشر الدين الإسلامي الجديد في صفوف الأمم والشعوب والقبائل ممّن كان لا يدين بالإسلام، مثل البربر، سكان معظم شمال غرب أفريقية، ومثل الروم سكان القارة الأوروبية، وبلاد الأندلس الواقعة في معظم جنوب إسبانية اليوم.

ولما كانت دوافع الفتوحات الإسلامية الأموية متعدّدة، وإن كانت غايتها أو دافعها الإسلامي، دينياً في الأصل، إلاّ أن ثمة أسباباً ودوافع، كانت وراء مواصلة الفتوحات الغربية التي منها الفتح الأندلسي، خاصة، فهل أن السبب الأساسي ديني بحتٌ، أم هل هو سياسي قائم على حب السيطرة والنفوذ، أم هل هو اقتصادي غايته التوسع والسيطرة على الموارد والإمكانات التجارية والزراعية والصناعية، أم هو كما قيل، بخصوص فتح الأندلس، كان استجابة ليوليان حاكم سبتة، هذا الحاكم الذي أراد أن ينتقم لابني غيطشة، من لذريق الملك المستبدّ، فكان أن مدّ جسراً للتعاون مع الأمويين؟ أسئلة، وأسئلة شتى، لا يمكن التفرّد بواحد من الإجابة عليها، وإن كان من شبه المؤكد أن المسلمين، زمن الأمويين، لما توسّعوا شرقاً، فافتتحوا بلاد فارس والسند، والبلقان، وبخارى، وطشقند، وسمرقند، وما وراء النهر، أرادوا أن يتوسعوا غرباً، فكانت مصر، زمن الخلفاء الراشدين، فالمغرب الأدنى، فالأوسط، فالأقصى، فالأندلس زمن الخلفاء الأمويين. . .

والمهم أن موسى بن نصير كان وجه طارقاً مولاه إلى طنجة، وما حاذاها، أو والاها، وأمره بالاستعداد لخوض عباب البحر، وتالياً خوض غمار معركة الفتح الكبرى، فتح بلاد الأندلس، إذ مع هذا الفتح تمكن العرب والمسلمون من أن يحكموا تلك البلاد الفائقة الروعة، والجمال قروناً ناهزت الثمانية، حكموها كلياً أو جزئياً، وكان خروج آخر عربي مسلم من الأندلس زمن بني الأحمر إثر أسر أبي عبد الله آخر ملوكهم في سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٩٢م.

طارق يجهز للفتح:

باختصار شديد، بادئ الأمر، نقول إن موسى بن نصير، وهو في القيروان، كان يطّلع على ما يجري على تخوم المغرب الأقصى عند التقاء البحر الرومي بالبحر العظيم الذي هو الأطلسي، وتحديداً في طنجة مقرّ مولاه طارق بن زياد، وكان هذا يبعث لسيّده موسى بالتقارير السياسية والعسكرية تقريراً بعد تقرير، حتى إذا ما اطمأن موسى فعلاً إلى أن لوليان على استعداد للتعاون مع الجنود المسلمين في غزو بلاد الأندلس، وقد لمس موسى حقيقة هذا التعاون لما جهّز لوليان أسطولاً بحرياً من المراكب، وضعه تحت تصرّف طارق في طنجة، هذا بالإضافة إلى السفن التي بعث بها موسى من القيروان إلى طنجة لتكون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة، باجتياز المضيق

الذي عرف فيما بعد باسم من اجتازه بمراكبه وجنده، عنيت طارق بن زياد[١]

طلائع المسلمين:

وكان طارق من قبل أن يقدم على خوض غمار هذه المهمة الصعبة، قد بعث في سنة إحدى وتسعين للهجرة بثلّة من الجنود المسلمين، على رأسهم طريف بن مالك، كلفهم القيام باستطلاع ثغور العدوّ المرابط في بلاد الأندلس، أو في الجزر المحاذية لتلك الثغور، والقريبة جداً من طنجة، تفصل بين البرّ الأفريقي والإسباني، وبالفعل وصل طريف هذا، وكان من البربر، إلى الجزيرة التي كانت تسمّى بالوميس Palomus حيث اجتمع ببعض رجال يوليان الساخطين على الملك لذريق، وراحوا يخططون فيما بينهم طرق غزو شبه جزيرة الأندلس، وسبل التعاون فيما بينهم، عندما تصدر الإشارة عن طارق بن زياد ببدء الهجوم. حدث هذا في غفلة عن لذريق إذ أنه كان مشغولاً بخوض غمار حرب في شمال البلاد، أعلنها عليه جماعة من المتمردين الإسبان الخارجين على طاعته، والمطالبين باستقلال مقاطعاتهم عن جسم مملكته الرحبة الأطراف[٢]

كتاب موسى إلى طارق:

ولقد ذكر أن طارق بن زياد لما بعث بطلائعه مستكشفاً ومستطلعاً، أصاب ستّ سفن للعدوّ، فكتب بذلك إلى موسى بن نصير، فكتب إليه هذا مستنجزاً الوعد، مؤكداً على العهد، طالباً إليه أن يتمّها سبعاً، ثم أن يسير بها إلى شاطئ البحر، ويستعد لشحنها، وأن يطلب رجلاً يعرف الشهور السريانية، فإذا كان يوم أحد وعشرين من شهر مارس، آذار، السرياني، فليشحنْ على بركة اللّه ونصره، في ذلك اليوم، فإن لم يكن عند زياد من يعرف شهور السريان، فلتكن شهور العجم، فإنها موافقة لشهور السريان.

فإذا جرت السفن على بركة اللّه، والنصح والإرشاد إن لم يكن الأمر، لم يزل لموسى، فسيطلع عليه جبل أحمر، تخرج منه عين شرقية، وبإزائها صنم ركزوا فيه تمثالاً لثور، فإذا وقف بإزائه، فليكسر التمثال، ولينظر فيمن معه إلى رجل أشعر، طويل، في عينيه قَبَل، أي حَوَل، أو شدّة سواد العين وبياضها، وبيده شَلَل، فليعقد له على مقدمة العسكر، وليقمْ في مكانه حتى يغشاه، بإذن اللّه[٣]

(١) البيان المغرب ١/ ٩٣.
(٢) نفسه ١/ ٩٣.
(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٠.

لما وصل كتاب موسى نظر زياد إلى جميع رجاله فما وجد شخصاً تنطبق عليه هذه الصفات إلا شخصه هو نفسه، فهو أحول، أقبل، طوال، أشعر، طويل الشعر، في يده بعض شلل.

فتعجّب طويلاً لهذا الكتاب، وما ونى أن كتب إلى سيّده موسى كتاباً جاء فيه: إني منتهٍ إلى ما أمر الأمير، ووصف، غير أني لم أجد صفة الرجل الذي أمرتني به إلاّ في نفسي[1]

خطة السير:

صبيحة يوم الاثنين لخمسٍ خلون من شهر رجب، من سنة ٩٢هـ، أبحر طارق بن زياد من طنجة، وقيل: من سبتة، في اثنيْ عشر ألف رجل من البربر[2]، في معظمهم، والعرب، فوصل في يوم أو بعض يوم إلى الجزيرة الخضراء من برّ الأندلس، ثم صعد إلى الجبل المسمّى باسمه.

وفي رواية ابن عذارى[3] أنّه سار في سبعة آلاف رجل، وفي رواية ابن قتيبة في ألف رجل وسبع مائة فعبروا المضيق، وقد كان لذريق ملك الأندلس، كما بينا من قبل مشغولاً بغزو أعدائه المتمردين عليه في الشمال، قيل: إنهم من جماعة البشكنس، فاستخلف ملكاً من ملوك القوط المحليين، الذين يدينون له بالسيادة المطلقة، قيل: كان اسمه تدمير، استخلفه مكانه، فلما علم هذا بقدوم طارق وجنده المسلمين الذين كانوا في معظمهم من البربر، كتب إلى لذريق، وقد أخذته الدهشة من نزولهم على البرّ الإسباني، بهذه السرعة الخاطفة، كتب إليه يقول: إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا، أم من الأرض نبعوا[4]

الاستهتار بحملة طارق:

كان هؤلاء بشراً مثل سائر البشر، ما نزلوا من السماء، ولا نبعوا من الأرض، لكنه الإيمان، والانخطاف بالجهاد في سبيل اللّه، والعزيمة والتقوى، والشجاعة، والإقدام، والثبات عند الشدّة والرخاء، كان هذا كله مجتمعاً وراء تلك الخطفة التي خطفها طارق بأولئك الجنود، فاجتازوا البحر في أقلّ من ساعة، فاحتلوا قرطاجة، فالجزيرة الخضراء، فيما كان لذريق الذي وصلته أنباء الحملة غير

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٠.
(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١.
(٣) البيان المغرب ٢/ ٨.
(٤) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٠.

مكترث، بل مستهتراً، ومهوّناً من شأنها، على اعتبار أنها لا تعدو كونها غزوة قام بها أحد المتهورين النزقين، وسرعان ما يرتدّ عليه، فيقضي على كل أثر من آثاره، هذا ما توهّمه لذريق، ولكن الوهم شيء، والواقع شيء آخر[1].

المواجهة:

ولمّا توغل طارق في عمق البلاد الإسبانية الجنوبية، أكثر فأكثر، وصار الأمر جدّاً، وغدا القول فصلاً، لا هزلاً، قفل لذريق راجعاً إلى طارق، من الشمال، ومعه سبعون ألف عنان، أي فارس، ومعه العَجَل، أي العربات التي كانت تحمل الأموال والزخارف، وكان هو على سريره الملوكي ذي الأبّهة والفخامة يتهادى بين برذونين، وقد كللته قبّة من الديباج حُلّيت بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت، قفل لذريق راجعاً، وفي نيته أن يقبض على هذه العصابة وهم أحياء، متوهّماً أنهم وبمجرد أن يروا مهابة هذا الزحف، فلا بدّ وأن يقعوا في الأسر، مفضّلين الاستسلام على أن يذوقوا الموت الزؤام.

خطبة طارق المشهورة:

ولما أن دنا لذريق من صفوف المسلمين، وهم قلّة، وجنود لذريق هم الكثرة، صعد طارق بن زياد المنبر، وقد خاف أن ينفرط عقد جماعته، ويدبّ الضعف في صفوفهم، فارتجل خطبته التاريخية المشهورة، وفيها يحذّر طارق جماعته الفرقة، والفرار، والفشل، والكسل، والخور، والخوف، ويرغّبهم في الجهاد في سبيل الله، ويحثّهم على خوض الحرب، وتحمّل المشاق، والصبر على البلاء، والتحلّي بالإيمان، مستخدماً مع جنده أسلوباً منطقياً في غاية الوضوح والصدق والطبعية، كيف والعدوّ أمامهم، والبحر وراءهم، والسفن قد أُحرقت، فلا سبيل إلى النجاة، أو النكوص، وليس لهؤلاء إلاّ المجابهة، فإمّا النصر، وإما الشهادة.

وبالنظر إلى أهمية تلك الخطبة التي دخلت التاريخ السياسي والعسكري والأدبي، وتداولتها الألسن، فإنا نوردها بتمامها، وهي:

«أيها الناس، أين المفرّ، البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس ثمّ، والله، إلاّ الصدق والصبر، فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضرّ معهما قلّة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعُجب كثرة. . .

---

(١) البيان المغرب ٢/٨.

أيها الناس، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله: إن حملتُ فاحملوا، وإن وقفت فقفوا... ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال.. ألا، وإني عامد إلى طاغيتهم، بحيث لا أتهيّبه حتى أخالطه، أو أقتل دونه، فإن قتلت، فلا تهنوا ولا تحزنوا، فتبدّدوا بين قتيل وأسير...

وإياكم، إياكم أن ترضوا بالدنيّة، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجّل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والذلّة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، واللّه معكم ومعينكم، تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين... وها أنذا حامل حتى أغشاه، فاحملوا بحملتي...»[1].

نصّ آخر لخطبة طارق:

وفي رواية ثانية، بل في روايات متعدّدة، نجد الخطبة عينها، لكنها قد تزيد أو تنقص، تباعاً لاختلاف الروايات والمصادر، لكن بالنظر إلى تلك التي وردت في «نفح الطيب» للمقري، وهي خطبة تكاد كاملة متكاملة تنضح بالإيمان والشهادة والتقوى، وبأسلوبي الإغراء والتحذير، وبالتشويق، والتخويف، وبالحجّة البيّنة الناصعة، والدليل المنطقي الواضح المقنع، والأسلوب الأدبي الرفيع الذي استخدمه طارق، فإنا نوردها ثانية كما وردت في المرجع المذكور، مع الاحتفاظ بقدر من الشكّ في صحّة نسبتها إلى طارق نفسه، هذا في نظر بعض الدارسين والباحثين، وذلك بالنظر إلى أسلوب الخطبة المسجّع الذي ينتظم كثيراً من عباراتها، وبالنظر إلى كون طارق رجلاً بربريّاً حديث العهد في الدخول إلى الإسلام، فأنّى له تلك السليقة، وهذه الفصاحة أو البلاغة، وهو حديث العهد بالإسلام، طريّ العود[2]؟.

والمهم فإن الخطبة التي أوردها صاحب «نفح الطيب» هي التالية:

«أيها الناس... أين المفرّ والبحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، فليس لكم، واللّه، إلا الصدق والصبر... واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦١.

(٢) انظر: مجلة العربي ص٩٦ ـ ٩٧، عدد ٢٩٣.
مقالة أحمد بسام الساعي بعنوان (خطبة طارق هل قالها حقاً).

القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت. . . وإني أحذّركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطّة أرخص متاع فيها النفوس أبدأ فيها بنفسي. . .

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورة في قصور الملوك ذوي التيجان. . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظّه معكم ثواب اللّه على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه، ومن دون المسلمين سواكم، واللّه تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارَيْن. . . واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لُذريق فقاتله إن شاء اللّه تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولن يُعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا لمهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخذلون. . .»[1]

نكتفي بهذا القدر من تعدّد رواية إيراد هذه الخطبة التي مهما اختلفت زيادةً أو نقصاناً، تقديماً أو تأخيراً، فإنها في المحصّلة، وكما اتضح لك، من خلال مضامينها الجهادية، وأسلوبها البلاغي المؤثّر، لكفيلة بأن تقدح في ذهن سامعها القناعة بالجهاد، وفي قلبه، طمعاً في جنّة الدنيا وغنائمها، وحور حسانها، وجنّة الآخرة، من بعد الشهادة، روح الاستبسال والشجاعة والإقدام.

المعركة الحاسمة:

تكرّر في خطبتي طارق بن زياد الآنفتيْ الذكر، ذكر «احملوا بحملتي» مخاطباً رجاله، كما في رواية صاحب الإمامة والسياسة، أو ذكر «احملوا معي» كما في رواية صاحب وفيات الأعيان، وبالفعل حمل جند طارق على العدوّ، وحمل طارق بنفسه، في مقدمتهم، وكانت المعركة الحاسمة التي يسمّيها صاحب «نفح الطيب»

---

(١) نفح الطيب ١/ ١١٣.

معركة لكّة، أو معركة البحيرة، تلك التي انجلت عن هزيمة ميمنة جيش لذريق، وكان على رأسها أحد أبناء غيطشة، وهزيمة ميسرة جيش العدوّ، وعلى رأسها ابن لذريق، وهزيمة قلب الجيش، وكان على رأسه لذريق، نفسه، هزيمة مرّة أوقعها المسلمون في صفوف جيش لذريق الذي، وكما قيل، نجا بنفسه فراراً من الموت، فعثروا لاحقاً على فرسه، وكان سرجه، كما بيّنا من قبل، من زبرجد وياقوت، وكان خفّه مكلّلاً بالذهب، وراح المسلمون المنتصرون يجوسون خلال ديار العدوّ، يقلبّون جثث قتلاه ذات اليمين وذات الشمال، فكانوا يميّزون العظيم منهم، من خاتمه الذهبي، والأوسط منهم من خاتمه الفضيّ، والعبيد، أو الطبقة الدينا، من خواتمهم النحاسية، أما طارق فجمع الفيء، وأخرج الخمس منه ومن الغنائم، ثم وزّعه على تسعة آلاف من المقاتلين المسلمين.

حدث هذا كله صبيحة يوم الأحد في الخامس من شهر شوال سنة ٩٢هـ، من بعد معركة بطولية حاسمة كانت بدأت يوم الأحد الواقع فيه الثامن والعشرون من شهر رمضان، في سنة اثنتين وتسعين للهجرة، أي بعد مرور حوالي ثلاثة أشهر من تاريخ عبور طارق المضيق الذي حمل فيما بعد اسمه، وتاريخ صعوده إلى الجبل المطلّ على المضيق عينه، والذي يحمل هو الآخر اسم طارق الفاتح العظيم[١]

رواية ابن قتيبة وابن عبد الحكم:

أما ابن قتيبة، وهو المتقدم على الذين أرّخوا تاريخ الأندلس من المغاربة والأندلسيين، فإنه، ومن بعد أن يصف لنا استعداد طارق لمجابهة لذريق، ومن بعد أن ألقى خطبته المشهورة محرضاً جنوده على الجهاد، يورد بعض تفاصيل تلك الحملة التي حملها المسلمون على الأعداء، ليخلص تالياً إلى أن لذريق، أو الطاغية كما أسماه طارق في خطبته، قتل في المعركة، فاحتزّ طارق رأسه بنفسه، وبعث بالرأس إلى موسى بن نصير بالقيروان، فبعث به هذا مع ابنه في ثلة من الأفارقة، إلى الوليد بن عبد الملك بالشام، ففرض له في الشُرف، وأجاز كل من كان معه[٢]

وإلى مثل هذا ذهب أيضاً عبد اللّه بن الحكم الفقيه والمؤرّخ المصري المتوفى في أوائل القرن الثالث الهجري، إذ هو أكّد على أن لذريق قتل في تلك المعركة، ثم حزّ رأسه من الوريد إلى الوريد[٣]

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٤٤.
(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٦١.
(٣) فتوح مصر والمغرب ص٩٦.

رواية ابن خلّكان:

وإلى قريب من هذا ذهب أيضاً صاحب كتاب وفيات الأعيان، عنيت ابن خلّكان الذي جاء في روايته أن طارقاً لما فرغ من إلقاء خطبته الحماسية تلك، وفيها يحرّض أصحابه على الصبر والثبات والاندفاع إلى مقاتلة لذريق وجيشه، لأن في ذلك الجنّة في الدار الآخرة، إن كانت الشهادة، وإلاّ فإنّ لهم، أي لجنوده جنات النعيم الأندلسية، والحور العين من النسوة الأندلسيات الجليقيات من ذوات القدّ الأهيف، والوجه الأصبح، والثغر الأملح... يقول ابن خلكان لما فرغ طارق من إلقاء تلك الخطبة انبسطت نفوس جنوده، وتحققت آمالهم، وهبّ ريح النصر عليهم، وقالوا: قد قطعنا الآمال فيما يخالف ما عزمت عليه، فإنا معك، وبين يديك... فركب طارق، وركبوا، وقصدوا قصرّ لذريق، في متّسع من الأرض، فلما تراءى الجمعان نزل طارق، فبات هو وأصحابه إلى أن طلع الفجر، فلما أصبح الفريقان لبسوا دروعهم، ونظموا صفوف كتائبهم وجنودهم، وكان لذريق في قلب جنوده وعسكره محمولاً على سريره، وفوق رأسه رواق ديباج يظلّه من الشمس، وبين يديه المقاتلة والسلاح... أما طارق وأصحابه فكانوا يلبسون زرد الحديد، وفوق رؤوسهم العمائم البيض، وبأيديهم الرماح والقسيّ العربية، والسيوف الهندية، فلما نظر لذريق إليهم من أعلى عرشه المحمول، هاله منظرهم فقال: أما، واللّه، إنّ هذه الصور التي رأينا ببيت الحكمة، ببلدنا، وداخله رعب كبير، ما كان يغني عنه من المجابهة، ومن التحام الجيشين، في معركة حاسمة انتهت بمصرع لذريق وجنده، وبانتصار المسلمين[1]

فتح إستجه:

أدرك طارق بن زياد بحسّه المرهف، وبُعد نظره الثاقب أن ما قام به، هو وجنده، من عظيم الفتح، ومن تحقيق النصر على يد فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، بإذن اللّه، أدرك أن هذا لا يكفي، مثلما أدرك أيضاً، عن طريق عيونه وطلائعه، وجماعة لوليان المتشفّين بهلاك لذريق، أن العدوّ المنهزم في وادي لكّة، أو البحيرة المشرفة على هذا الوادي، راح يعدّ العدّة ويجهزّ الجيوش، للانتقام من هزيمته، ولطرد هؤلاء الذين نبعوا من الأرض، أو الذين هبطوا من السماء، بحسب تعبير تدمير، خليفة لذريق، وهذا ما صحّ توقعه بالفعل، إذ أن جماعة القوط المنهزمين راحوا يتجمعون في طليطلة عاصمة ملكهم، وفي ما حاذاها من القرى

---

(١) وفيات الأعيان ٥/ ٣٢٣.

والدساكر والحصون، استعداداً للانتقام والثأر، عن طريق تنظيم صفوف جيوشهم من جديد، وعن طريق تعبئة المرتزقة الذين راحوا يحشرون إلى القلعة المسمّاة بقلعة استجة Ecija الواقعة على نهر شنيل في إقليم إشبيلية، تعرف اليوم باسم أسيخا، لكن طارقاً سرعان ما باغتهم في تلك القلعة، وفي نيّته القضاء على جميع من تحصّن فيها، أو الاستسلام والصلح، ما اضطرّ قائد القلعة إلى مصالحة طارق الذي قبل الصلح بدوره، فارضاً عليه الجزية، تاركاً عنده ثلة من العسكر تحسّباً لأيّ طارئ، أو نكوص[١]

فتح قرطبة:

من إستجه التي اعتبرها طارق قاعدة متقدمة لجنوده، راح يشنّ الغارة تلو الغارة على الثغور والمدن الإسبانية، يقود العساكر بنفسه، أو يكلّف من هو أهل للقيادة، وإن من هذه الثغور أو المدن، أو الحصون، كلاّ من شذونة، وقرمونة Caramona الواقعة إلى الشرق من إشبيلية، ومثلها مورون Moron، وملقة Malaga الواقعة على البحر المتوسط، ومثلها القيرة Elvira، وأهمها إطلاقاً تلك المدينة الواقعة على النهر الكبير، قرطبة، التي بعث طارق إليها مغيثاً الرومي، مولى الوليد بن عبد الملك، في سبعمائة فارس من أشدّ الفرسان، قيل: إن الخيل التي ركبها هؤلاء كانت ممّا غنمه المسلمون من خيل الإسبان، وقيل: إن في قرطبة ثغرة لا بدّ من عبورها، والنفاذ منها إلى الداخل، كون المدينة محصّنة من جميع الجهات، فلما أقبل الليل، اشتدّ عصف الريح، وتراكم السحاب، فأمطرت السماء، ما حال دون سماع الحراس وقع حوافر الخيل، فعبروا النهر فالسور المشرف عليه، يقدمهم مغيث، حتى إذا ما وصلوا إلى باحة قصر الملك أو الحاكم على المدينة الذي لاذ بالفرار، ومعه أربعمائة من الفرسان، لاذوا عن طريق نفق سرّيّ كان محفوراً تحت القصر، حتى إذا ما انتهوا إلى الكنيسة الواقعة بإزاء النهر والقصر، اختبأوا فيها، فانبرى أحد جنود طريف، وهو من البربر، أسود اللون، فاحم الشعر، انبرى إلى شجرة بفناء الكنيسة، فاحتوشه جنود الحاكم، فأسروه لكنه تمكن من الهرب ليلاً، ومن اللحاق بالمسلمين، طالباً مقابلة طريف، فقابله وأخبره بما شاهد، متعجباً من كيفية حصول العدوّ على الماء، يشربونه على الرغم من الحصار المفروض عليهم، ما دفع طريفاً إلى إخبار قائده طارق بالأمر، فجاء الأمر بقطع الماء عن القوم، عن طريق سدّ القناة التي كان يجري فيها الماء إلى الكنيسة،

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٠.

ما اضطرّ القوم إلى الاستسلام، فخيّرهم طريف الجزية أو القتال، فاختاروا القتال، فقضى عليهم طريف جميعاً حرقاً، باستثناء قائدهم الذي آثر الفرار، فلحق به طريف، فأسره، واحتفظ به حيّاً لعرضه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، وإنّ الكنيسة التي قتل أو أحرق فيها الإسبان راحت تدعى كنيسة الحرقى منذ ذلك اليوم(١).

فتح طليطلة:

بسقوط قرطبة، وغيرها من المدن والثغور الأندلسية، أُسقط في أيدي القوط لتصديّهم لهذا الجيش الذي لم ينهزم في معركة بعدُ، فاحتموا بطليطلة، عاصمة لذريق، تلك المدينة المحصّنة الواقعة على نهر تاخو أو التاج Tajo، والبعيدة كل البعد عن قرطبة، إلى أقصى الشمال جنوب مدريد، العاصمة الأسبانية اليوم، والتي كانت دار مملكة القوط، ومقرّ ملوكهم، لكن طارقاً أبى إلاّ أن يُلحق الهزيمة بآخر فلول عساكر القوط، فانطلق يحثّ السير، بعساكره، باتجاه طليطلة، فوجدها خاوية على عروشها، خالية من القوط الذين آثروا الفرار، وقادتهم، إلى أقصى الشمال، باستثناء عدد لا يستهان به من اليهود الذي كانوا يقطنون المدينة، فاستسلموا لطارق وصالحهم، ولم يحاربوه، إذ أنهم وجدوا في المسلمين، وهذا ما سوف يتحقق فعلاً لاحقاً، وجدوا فيهم خير منقذ أنقذهم من محاربة القوط إياهم طيلة عقود من السنين(٢).

ولم يكتف طارق وجنوده بهذا الفتح، بل راح ينشر عساكره، وبعوثه ذات اليمين وذات الشمال، يفتتح المدائن، ويدكّ الحصون والقلاع، ومن ثم انكفأ إلى الغرب الشمالي قاصداً جليقية واسترقة، وسواهما من المدن والثغور(٣).

طارق شاعراً:

ولقد حفظت كتب الرواية والتاريخ بعضاً من الأبيات الشعرية التي قالها في ذلك الفتح الذي فتحه، فتح طليطلة خاصة، ما يثبت أنه مقتدر في نظم الشعر، وصناعة البيان، أو في حفظه وإنشاده إن كان لغيره، يقول طارق من وحي ذلك الفتح:

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيّرا ... عسى أن يكون اللّه منّا قد اشترى

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) نفسه ١/ ٢٥٥.
(٣) نفح الطيب ١/ ٢٥٥.

نـفـوسـاً وأمـوالاً وأهـلاً بـجـنـةٍ إذا ما اشـتـهـينا الـشـيء فـيـهـا تـيـسّـرا
ولـسـنـا نـبـالـي كـيـف سـالـت نـفـوسـنـا إذا نـحـن أدركـنـا الـذي كـان أجـدرا(١)

كتاب الأمان:

أمام هذا الواقع الجديد، وأعني انتصار طارق بن زياد في معظم المعارك التي خاضها ضدّ الإسبان القوط، فاتحاً أمصارهم، مدوّخاً ملوكهم، سابياً رؤوسهم، كاسباً مغانم وأموالاً كثيرة، كان لا بدّ من مجازاة الذين قدّموا العون لطارق، لا، بل إنهم كانوا من أسباب انتصاره، إذ أمّنوا له الطريق إلى الفتح، ودلّوه على مكامن العدوّ، أجل، لقد أعطى طارق أولاد غيطشة ملك الإسبان الأسبق الذي حكم قبل لذريق، أعطاهم الأمان، فقالوا له: أنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟ فانتبه طارق إلى أنّ مثله، وهو الذي يعمل تحت إمرة أمير، انتبه إلى تهوّره، فقال: على رأسي أمير، يقصد موسى بن نصير، وفوق الأمير أمير عظيم، يقصد الخليفة بالشام، فاستأذنه أولاد غيطشة باللحاق بموسى بن نصير، فأذن لهم، فجاؤوا أفريقيا قاصدين موسى بالقيروان، فلقوه في منتصف الطريق قاصداً المغرب، فحدّثوه بكتاب الأمان، فأنفذهم إلى الوليد بن عبد الملك، بالشام، فلما جاؤوه حدّثوه بكتاب الأمان الذي كان منحهم إياه طارق، فكتب الخليفة إليه طالباً منه أن يردّ عليهم ضياع غيطشة كلها، وهذا ما حصل بالفعل، إذ أنّ طارقاً ردّ على ألمندو Olmundo مائة ضيعة في غرب الأندلس، وردّ على أرطباش Ardabas ألف ضيعة في وسط البلاد، وردّ على أخيلا Aquila ألف ضيعة في الغرب... أما سارة القوطية بنت ألمندو فجاءت مع أخويها الصغيرين تريد الشام، تشكو ظلم عمها، فوصلت إلى عسقلان جنوب فلسطين، ثم دمشق الشام، فقابلت الخليفة، وشكت إليه الظلم الذي وقع عليها من عمّها أرطباش فكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله على أفريقية، يأمره بإنصاف المرأة، فكاتب حنظلة عامله بالأندلس أبا الخطار، فأنفذ لها ما أرادت(٢)

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٥.
(٢) نفح الطيب ١/ ٢٥٦.

مبحث ثانٍ

فتوحات موسى بن نصير

فتح طليطلة:

في رواية ابن قتيبة أن طارق بن زياد لما توغّل بعيداً في بلاد الأندلس، وأوغل كثيراً في سياسة الفتوح، وكان ذلك بأمر من سيّده موسى بن نصير، ما أرهق كاهل هذا الفاتح الشاب، كتب إلى مولاه موسى بالقيروان، كتاباً يذكر فيه أن الأمم تداعت عليه وعلى المسلمين الفاتحين من كل جانب، وفيه يطلب النجدة، والاستعانة بجيوش موسى المرابطة في البرّ الأفريقي، ما جعل موسى ينادي في الناس طالباً الغوث لمساعدة طارق، وبالفعل فإن موسى استخلف ولده عبد اللّه على أفريقية، وطنجة، والسوس، أما ولده الآخر مروان فقد بعث إليه موسى يأمره بالمسير إلى طارق، فما عَتَّمَ أن اجتاز ومن معه من الجند المضيق المعروف باسم طارق، سابقاً أباه موسى إلى هذا الشرف العظيم، وأما موسى، فقد خرج هو الآخر، والناس معه، حتى أتى المجاز، أو المضيق، فعبره برجاله وسفنه ومراكبه، واجتمع حوله الكثير من المسلمين، ممن كانوا سبقوه إلى بلاد الأندلس، فسار بهم غرباً، في بادئ الأمر، ثم شمالاً، مفتتحاً المدن الإسبانية، واحدة بعد الأخرى إلى أن وصل إلى طليطلة، مدينة الملوك، وكان طارق بن زياد من قبل قد صالح أهلها، أو قل من بقي من أهلها، وجلّهم من اليهود، صالحهم على الجزية، فدخلها موسى فاتحاً ومن معه، فوجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك، وجد فيه أربعة وعشرين تاجاً، عدّة الملوك الذين كانوا ولوا الأندلس حتى زمن لذريق، وقد كتب على كل تاج اسم الملك الذي كان يلبسه، واسم والده، وتاريخ وفاته، ومدّة ولايته، كما أنه وجد فيه أيضاً مائدة عليها اسم سليمان بن داود، ومائدة من جزع، فعمد موسى إلى التيجان والمائدة والآنية، فقطع عليها الأغشية، وجعل عليها الأمناء الذين كلّفهم حراستها، وحراسة الأموال والجواهر التي كانت مودعة في ذلك البيت، وسنعود لاحقاً إلى ذكر هذه الأموال، وذكر المائدة خاصة[1]

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦١ ـ ٦٢.

رواية المقري:

تلك كانت رواية صاحب «الإمامة والسياسة»، أما رواية صاحب «نفح الطيب» وهو المقرّي، فتقول إن موسى بن نصير لمّا بلغه ما صنع طارق من فتوح، وما حققه من إنجازات، وأبداه من بطولات، حسد طارقاً على ما آتاه اللّه، فعزم على النزول إلى برّ الأندلس، وهذا ما كان يدبّر له، في ما سلف، بالاتفاق مع بعض أدلاّء يوليان، وبالفعل نزل موسى على برّ الأندلس، في سنة ٩٣هـ، وكان بصحبته حبيب الفهري، من بعد أن عبر بسفنه مضيق جبل طارق هو ومن معه من العساكر والجند المتطوّعة من العرب والموالي والبربر الذين بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً، كان ذلك في شهر رمضان من سنة ٩٣هـ، وقد سلك موسى في دخوله بلاد الأندلس طريقاً عُرفت بطريق موسى، غير تلك التي سلكها طارق من قبل، لقد سلك موسى طريق الساحل المؤدية إلى شذونة، ففتحها عنوةً، فقرمونة، فتحها خلسةً وبحيلة دبّرها له أدلاّؤه من أتباع يوليان، فإشبيلية المدينة الواقعة على نهر الوادي الكبير.

وكان في هذه المدينة كبار رجال الدين النصارى، فحاصرها شهراً ثم افتتحها، فباجة، الواقعة اليوم في البرتغال، فافتتحها تاركاً فيها بعض رجالات اليهود، فماردة، أو مريدة Merida الواقعة على نهر غواديانا غربي الأندلس، وكانت محصّنة تحصيناً محكماً، وعبثاً حاول موسى أن يقتحم أسوارها ما اضطرّه إلى استخدام دبّابة ذلك العصر، وهي شبيهة بدبّابة اليوم لجهة الشكل، وإلى استخدام الآلات التي راحت تحفر الأرض، وتنقب الأسوار والبروج، فكان النصر حليفه، إذ استطاع دخول المدينة لكن من بعد لأي، ومن بعد أن قتل من جيشه عدد كثير، من هنا كانت التسمية التي أطلقت على تلك الوقعة هي تسمية برج الشهداء، لكثرة ما سقط فيها من قتلى في صفوف المسلمين[1]

وتتابع الرواية فتقول إن موسى من بعد أن فتح إشبيلية وصالحه قومها بالأمان، أقام ولده عبد العزيز ليكون والياً عليها، فيما تابع هو وجيشه الزحف باتجاه طليطلة، قاصداً طارقاً هناك، قيل: إن موسى لما وصل طليطلة وواجه طارقاً، خرّ هذا ساجداً له، إعظاماً وإكباراً، لكنّ موسى وبّخ طارقاً، وقنعه بالسوط بحجّة أنه خالف رأي مولاه، وما تقيّد بأوامره جميعها بحذافيرها، وقيل: إن سبب ذلك هو أن طارقاً احتفظ لنفسه ببعض أموال الفيء، وبذخائر بعض الملوك[2]

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٩.
(٢) نفسه ١/ ٢٦١.

موسى وطارق معاً:

وأياً يكن نصيب هذه الرواية السالفة الذكر من الصحّة، أقصد توبيخ موسى لطارق بحجّة مخالفته لأمره، فإن كتب التاريخ تكاد تجمع على أن موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، لما التقيا في طلبيرة، حيث كان طارق مرابطاً، في أقصى الشرق الشمالي، اتجها معاً في الطريق إلى مدينة سرقسطة Zaragoza القريبة من طلبيرة، والواقعة على نهر إبرو غربي برشلونة، وعاصمة إقليم أراغون، فهاجماها بجيشهما الموحد، أو قل بجيشيهما، لأن تحت إمرة كلٍّ منهما جنداً وعدداً لا يستهان به من المتطوّعة والفاتحين، من العرب والبربر، سواء بسواء، هاجماً هذه المدينة الحاضرة، من بعد حصار لا يتجاوز الساعات، فسقطت للتوّ، فتابعا السير معاً حتى وصلا بلدة أڤينون Avinoum شمالاً على نهر الرون جنوبي فرنسا، وكادت المدينة تسقط في أيدي جيشيهما لولا وقوع الفتنة التي حدثت بين أهل الشام وأهل البلد الأسالمة، من جهة، وبين البربر والعرب من جهة ثانية[١].

افتراقهما:

والرواية التي هي أقرب إلى الصواب، هو أن طارقاً وموسى لما احتلاّ سرقسطة الواقعة في إقليم أراغون الشمالي الشرقي من إسبانية، افترقا، وسار كلّ واحد منهما في اتجاه، أما موسى فكان اتجاهه شرقاً إلى أن وصل إلى مدينة ترقونة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، إلى الغرب من برشلونة، وصلها، فشنّ عليها الغارة، فسقطت في الحال، وكان على رأس الجند أو الحامية التي دخلت المدينة عبد العزيز، فيما تابع موسى السير شمالاً إلى أن وصل جبال البيرنيه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا اليوم، وما منع موسى من المضيّ قُدُماً في الفتح إلا أمرٌ جاءه من الوليد بن عبد الملك حمله مغيث الرومي وفيه يطلب إليه أن يتوقف عن سياسة الفتح[٢].

هذا عن موسى، أما طارق، ومن بعد افتراقه عن موسى، فإنه سار بجيشه غرباً، وشمالاً، فعبر نهر الإبرو، إلى أن وصل إلى ليون، قاعدة ولاية ليون الإسبانية الجليقية الشمالية الغربية، فاحتلها، ثم إلى أسترقة، فاحتلّها، حتى كاد أن يبسط نفوذه على معظم الغرب الشمالي الإسباني، الأمر الذي أغاظ موسى بن نصير، في دخيلة نفسه، وذلك لأن موسى كان يتلهف إلى دخول تلك المقاطعة

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٤.

(٢) الروض المعطار ص١٢٨.

الإسبانية النائية المشهورة بجمال طبيعتها ونسائها، وبوفرة غلالها وثمارها وخيراتها، الأمر الذي حقّقه موسى بالفعل، إذ، هو، وباستخدام أسلوب الملاطفة والموادعة الذي استخدمه مع مغيث الرومي، رسول الوليد بن عبد الملك، إليه، وفيه الأمر بالرجوع إلى الشام، والتوقف عن الفتوحات الأندلسية والأوروبية، وادع موسى مغيثاً متريّثاً تسلّم الأمر منه، حاملاً مغيثاً معه، سائراً به مع جنوده إلى أقصى الشمال والغرب، فما انفكّ موسى يفتح الحصن بعد الحصن، وإن من هذه الحصون حصن لُكّ، وحصن بارو، وحصن بلاي على شاطئ الأطلسي، حتى دانت له جليقية بكاملها تقريباً، من بعد أن فرض الجزية على الجلالقة والقوط الغربيين، وكان بودّ موسى التقدم أكثر في الفتح لولا ورود رسول الوليد بن عبد الملك، الآخر، وكنيته أبو نصر، جاء يحمل كتاباً يؤنّب فيه الخليفة موسى بن نصير على تلكّؤه في العودة إلى بلاد المشرق[1]

معاً ثانيةً:

والتقى موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً ثانيةً، لكن ليس في طريق الفتح، بل في طريق العودة إلى بلاد المشرق، إثر ورود كتاب الوليد بن عبد الملك عليهما ثانية، يحمله أبو نصر، ومن قبل كان بعث بكتابه الأول، ويحمله مغيث الرومي... أقول التقى موسى وطارق معاً ثانية في منتصف طريق العودة، وكان معهما الرسولان أبو نصر ومغيث، إلى أن وصلوا إشبيلية في جنوب غرب الأندلس، فاستخلف موسى عليها ولده عبد العزيز، فيما أكمل رجوعه، ومعه طارق بن زياد، باتجاه المشرق، عن طريق ركوب البحر، بمحاذاة البرّ الأفريقي[2]

التوسع في الغزو:

وسّع موسى بن نصير فتوحاته غرباً وشرقاً وشمالاً، حتى دانت له معظم مدن وأقاليم إسبانيا من أراغون شرقاً حتى جليقية غرباً، وكان أهل هذه المقاطعة قد وفدوا على موسى طالبين الصلح، فصالحهم، وفرض عليهم الجزية.

ولقد حدث عبد اللّه بن المغيرة بن أبي بردة، وهو أحد الذين غزوا مع موسى بن نصير في بلاد الأندلس النائية، وكان ممّن حضر فتح سرقسطة، حدث قال انه في إحدى غزوات موسى الضاربة بعيداً في الشمال، أتى المقاتلة المسلمون

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٦.

(٢) نفسه ١/ ٢٦٦.

على مدينة بحرية، محصنة لها أربعة أبواب، فحاصروها أياماً دون جدوى، إلى أن جاء أحدهم، واسمه عياش بن أخيل، وكان صاحب شرطة موسى، فقال له إنه فرّق الجيش أرباعاً متساوية على جهات المدينة الأربع، ولم يبق إلاّ باب واحد يخرج عن أبواب المدينة الأربعة، يطلق عليه اسم الباب الأقصى، وكان عليه رتبة، وكان زاد المسلمين على أهبة النفاد حين أمر موسى باقتحام ذلك الباب، فاقتحمه المسلمون، ففرّ من كان في المدينة من المقاتلة والفرسان، فكلّف موسى ولده مروان ملاحقة الفاريّن فأدرك بعضهم، وأسرع القتل فيهم، وأصاب مما كان معهم، وما حملوه من الزاد، من المدينة، فانتعش حال المقاتلة المسلمين، ثم إنهم دخلوا المدينة فغنموا مغانم كثيرة[1].

موسى في مقدمة الفتح:

ولئن كان يكلّف موسى مروان ولده قيادة هذه الفرقة أو تلك من الجند، أو أي قائد آخر غيره، فلا يعني هذا أبداً أن موسى كان همّه إصدار الأوامر، وتكليف هذا أو ذاك بالتقدم إلى مواجهة العدوّ. . . لا، والصحيح أيضاً أن موسى كان يقود الفاتحين بنفسه، ولطالما تقدمهم جميعاً، بحيث إنك لن تجده إلاّ في الطليعة، حدث جعفر بن الأشتر، وكان ممّن غزا في بلاد الأندلس مع موسى بن نصير، حدّث قال إنا حاصرنا طويلاً حصناً من حصون الأندلس العظيمة، مضى علينا ما يزيد على عشرين ليلة، فلم نقدر على فتح هذا الحصن، ولم نتمكن من اقتحامه، الأمر الذي حيّر موسى بن نصير، وكان في مقدمة المحاصرين، ولما استيأسنا من فتحه وطال ذلك علينا وعليه نادى موسى فينا أن أصبحوا على تعبئة، فظنّنا أنه قد بلغه من العدوّ مادة، وقد دنت منّا ومنه، وأنه يريد التحول عنهم، فلما أصبحنا، يقول جعفر، على تعبئة، قام موسى فحمد اللّه، وخطب فينا قائلاً: أيها الناس، إني متقدم أمام الصفوف، فإذا رأيتموني قد كبّرت وحملت، فكبّروا، واحملوا[2].

خطب موسى خطبته القصيرة تلك، فظنّنا، يقول جعفر، أن الرجل قد فقد عقله، أو عزب عنه رأيه، وتعجبنا من صنيعه الذي يأمرنا فيه بأن نحمل على حجارة صمّ لا تنال منها إلاّ المنجنيقات، وهذا ما لا سبيل لنا إليه، يقول جعفر، فتقدم موسى بين يدي الصفوف، حيث يراه الناس، ويرى الناس، ثم إنه رفع يديه، وأقبل على الدعاء والرغبة، وأطال ذلك، والجند ركوب ينتظرون تكبيره، وما أن

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٥.
(٢) نفسه ٢/ ٦٥.

رفع موسى يديه، وكبّر، أي قال اللّه أكبر، فكبّر الناس، وحمل موسى، وحمل الناس حملة واحدة مع موسى على الحصن ذي الحجارة الصمّ التي لا تقهر، ولا تتزحزح، ويا للعجب حينما انهدّت ناحية الحصن التي تلي الجند، فدخلوا منها، وما راع الناس، يقول جعفر، إلاّ خيل المسلمين تدخل الحصن أفواجاً أفواجاً، تمرع في ساحة الحصن، تصول وتجول، وهكذا فتح اللّه على موسى بصبره، وثباته، وإيمانه، وإصراره على المضيّ قدماً في سبيل اللّه[١]

موسى يغزو في أهله وولده:

ويؤكد هذا أيضاً، أي تقدّم موسى جنده، ما حدثت به مولاة له، كانت من أهل الصدق والصلاح، قالت إن موسى حاصر الحصن الذي كان لأهلها، وكان بإزائه حصن آخر، فأقام موسى محاصراً حيناً، ومعه أهله وولده، وكان لا يغزو إلاّ بهم، لما يرجو من ثواب في ذلك، تقول تلك المولاة إن أهل الحصن خرجوا إلى موسى فقاتلوه قتالاً شديداً، ولما طال عليه ساعة ذلك، فتح اللّه عليه، فلما رأى ذلك أهل الحصن الآخر الذي كان بإزائه، سارعوا إلى النزول على حكم موسى في يوم واحد، وفي اليوم التالي أتى موسى حصناً ثالثاً، فلقي أهله خارجه، فاقتتلوا قتالاً شديداً أيضاً، حتى جال المسلمون جولة واحدة، فأمر موسى بالسرادق، أي القبّة التي فيها النساء، فكشط عن بناته ونسائه، حتى برزن، ولقد كسر بين يدي موسى في ذلك اليوم ما لا يحصى من أغماد السيوف، لكن النصر كان حليف موسى وجنده، وفتح اللّه عليه وعلى جنده فتوحاً ما كان بالأمر السهل بلوغها وتحقيقها[٢]

النصر حليف موسى:

وهكذا، تتابع فتح الحصون، والمدن والثغور الأندلسية، حصناً بعد آخر، ومدينة إثر مدينة، وثغراً عقب ثغر، على يد هذا الأمير العربي المسلم، فاتح بلاد الأندلس، وهو ومولاه طارق بن زياد، ما ردّت له راية قط، بحسب قول عبد الرحمن بن سلام، ولا هزم له جمع قطّ حتى مماته[٣] وهذا ما دفع أحد أساقفة الأندلس، وقد هاله ذلك الفتح، وتلك الانتصارات، إلى القول مخاطباً موسى: إنا لنجدك في كتب الحدثان، أي الملاحم، عن دانيال[٤]، بصفتك صياداً

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٥.
(٢) نفسه ٢/ ٦٦.
(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٦.
(٤) دانيال، اسم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، ، له السِّفر الموسوم باسمه في التوراة.

تصيد بشبكتين، رجل لك في البرّ، ورجل في البحر، تضرب بهما هنا، وهنا، فتصيد[١]

رشيد موسى:

وهكذا أيضاً توالت فتوحات موسى في بلاد الأندلس من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، من طليطلة في الوسط، إلى إشبيلية ومالقة في الغرب والجنوب، إلى سرقسطة وليون شمالاً، حتى أن الناس كما يقول عبد الحميد بن حميد اشتدّ ذلك عليها، وقالوا له: أين تذهب بنا؟ حسبنا ما في أيدينا. إشارة منهم إلى ما كان موسى قاله لما دخل أفريقيا وذكر عقبة بن نافع، أول فاتح إسلامي ضرب بعيداً في الغرب الأفريقي، قال موسى يومئذٍ غامزاً من قناة نافع: لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدوّ، والعدوّ عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟ فسمعه حبيش الشيباني، قال فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من الفتوحات قام فأخذ بعنان فرسه ثم قال مخاطباً موسى:

أيها الأمير، إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرّر بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟ وأنا رشيدك اليوم، أين تذهب؟ أتريد أن تخرج من الدنيا، أو تلتمس أكثر وأعظم مما آتاك اللّٰه عزّ وجلّ، وأعرض مما فتح اللّٰه عليك، ودوّخ لك... إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم، وأحبّوا الدعة.

فضحك موسى ثم قال: أرشدك اللّٰه، وكثر في المسلمين مثلك، ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس، وقال موسى يومئذٍ: أما، واللّٰه، لو انقادوا إليّ لقدتهم إلى رومية، ثم يفتحها اللّٰه على يديّ، إن شاء اللّٰه[٢]

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/٦٦.

(٢) نفسه ٢/٦٦.

مبحث ثالث

مغانم ومكاسب

سبق أن قلنا إن موسى كان يبعث كلما دعت الحاجة إلى سيّده الخليفة الوليد بن عبد الملك بالفتح، كلّما أمكن، تلو الفتح، عن طريق الكتب التي كان يفصّلها تفصيلاً، أي يفصّل فيها فتوحاته بدقّة، مبيّناً له ما وقع في يديه من المغانم والمكاسب والسبي، والفيء الذي ما شابهه فيء آخر في الشرق، فما حقيقة هذا الفيء، وما هي الغنائم التي غنمها موسى في فتوحاته تلك؟ نكتفي بذكر طائفة من تلك الأخبار التي تحدثت عمّا غنمه موسى وجنده في تلك الأصقاع.

جدار الكنيسة الذهبي:

من تلك الغنائم التي غنمها موسى في فتوحاته الأندلسية نفائس المعادن الكريمة، والجواهر الفريدة التي لا تثمن بثمن، إذ ذُكر عن الليث بن سعد أن موسى بن نصير لما دخل الأندلس، هو وجنده، طالعتهم كنيسة، وقد أخذ التعب منهم، ومن خيولهم كلّ مأخذ، فأرادوا الراحة، وراحوا يضربون الأوتاد للخيل في جدار تلك الكنيسة، فما يقوون على ذلك ولم تتمكن الأوتاد من ولوج جدار الكنيسة على الرغم من الدقّ عليها بالمطارق الثقال، فنظروا فإذا بصفائح الذهب والفضة تتخلّل خفية أحجار الرخام، ما جعل الرخام أشدّ صلابة وقوّة[(١)]

الطنفسة الذهبية:

وذكر عن الليث أيضاً أن رجلاً كان مع موسى، في بعض غزواته بالأندلس، فرأى رجلين يحملان طنفسة، أي سجّادة، منسوجة بالذهب والفضة والياقوت والجواهر، فلما أثقلتهما، وأعياهما حملها، أنزلاها، فحملا عليها الفأس، فقطعاها نصفين، فأخذا نصفاً، وتركا الآخر، فكانت الناس تمرّ بها شمالاً ويميناً، فما تلتفت إليها استغناء عنها بما هو أرفع وأجلّ وأثمن وأنفس، فلما أُبلغ موسى بالأمر وقد جاء رجل طالباً منه أن يدلّه على أحد الكنوز القريبة، فبعث موسى معه رجالاً، فقال الدليل: انزعوا ها هنا، فنزعوا، فسال

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣.

عليهم من الزبرجد والياقوت ما لم يروا مثله قطّ، فلما رأوه بهتوا، وقالوا: لا يصدق موسى ما شاهدناه! وأرسلوا إليه، فجاء ونظر بأم عينه، فتعجّب مما شاهد، وعلم أن الطنفسة تلك ما نظمت ونسجت قضبانها الذهبية والفضيّة، وخيوطها اللؤلؤية والزبرجدية والياقوتية إلا من ذلك الكنز السائل الفيّاض بالخيرات، وقيل: إن الرجلين البربريّين اللذين عثرا على تلك السجادة ربما حاولا حملها فلا يستطيعان، فيضربانها في وسطها، ويأخذان منها ما أمكنهما، ثم ينصرفان عنها اشتغالاً بما هو أثمن وأنفس[١]

الذهب، الذهب:

وفي المصدر عينه، أقصد الإمامة والسياسة، لابن قتيبة أن الدواب التي كانت تطلع في بعض غزوات موسى بن نصير، والمقصود بها هنا الخيل والبغال، كان يُنظر في حوافرها، فيوجد فيها مسامير الذهب والفضّة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما هو يدلّ على مدى الثراء، وسعة العيش، ووفرة الغنائم والفيء الذي فتحه اللّه على موسى بن نصير، ألم يذكر هذا موسى في أحد كتبه التي بعث بها إلى الخليفة في الشام لما افتتح الأندلس، كتب إليه يقول:

يا أمير المؤمنين، إنها ـ أي الأندلس ـ ليست كالفتوح، ولكنه الحشر[٢]

وعلى ذكر الذهب، وما يلحق به من المعادن والأحجار الكريمة النفيسة، فقد ذُكر، وهذا ما حدّث به عبد الحميد بن حميد، عن أبيه، أنه قال قدمت الأندلس امرأة عطارة فخرجت بخمسمائة رأس، فأما الذهب والفضة والآنية والجواهر، فذلك لا يحاط بعلمه[٣]

وحدث ياسين بن رجاء، أنه قدم عليهم رجل مديني، نسبة إلى المدينة، شيخ طاعن في السنّ، فراح يحدثهم عن الأندلس، ودخول موسى بن نصير عليها، وكيف أنه، أي هذا الشيخ إنما هو واحد من سبي موسى، فاشتراه أحدهم بقبضة من فلفل كانت لمطبخ موسى بن نصير، كما أنه راح يحدثهم عن ماضي حياته وحياة آبائه الذين كانوا من وجهاء الأندلس، وكيف أنه لما سمع بموسى بن نصير عمد إلى عين ماله من الذهب والفضة والجواهر، وغير ذلك، فدفنه في موضع لم

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣.

(٢) نفسه ٢/ ٦٤.

(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٤.

يُطلع عليه أحداً، فلما تقدم للخروج إلى ذلك الموضع لاستخراجه أضاع كلّ أثر له[١].

مائدة سليمان:

وأيّاً يكن الذهب فإن قيمته معروفة ومحدّدة سلفاً، ومثله اللؤلؤ والزمرد والياقوت، والفضّة، أما ما كان مصنوعاً من الذهب، وذا دلالة تاريخية أو دينية كمثل تلك المائدة التي استحوذ عليها موسى بن نصير في طليطلة، عاصمة ملوك القوط، لما فتحها، أقول أما ما كان مصنوعاً من الزمرد والياقوت، ومن الذهب، كمثل تلك المائدة التي تنسب إلى نبيّ اللّه سليمان بن داود عليه السلام فهذا، ما لا يقدّر بثمن، ولا يكيّف بكيف، كيف وهي التي كان ملوك القوط لا يطلعون عليها أحداً إلاّ الخاصة، وكانوا لا يظهرونها إلاّ في المناسبات العظيمة، تفنّن في صنعها الصناع، وتنافس في إتقانها المبدعون، زمن سليمان بن داود، وكان يدفع لها النذور التي يتبرّع بها كبار الملوك والأعيان يتبرعون به للكنيسة على سبيل التبرك والتبجيل، وكان يُحمل على تلك المائدة الأناجيل، من هنا نفاسة تلك المائدة، وندرة قيمتها الإيمانية والإنجيلية والدينية والمعنوية هذا فضلاً عن قيمتها المادية التي تفوق الحصر.

البيت العجيب:

ولقد وجد موسى بن نصير تلك المائدة الثمينة المقدسة المصنوعة من الذهب واليواقيت والزمرّد واللؤلؤ، وجدها في بيت من بيوت طليطلة، عليه أربعة وعشرون قفلاً، بحيث أنه كلما توفي ملك وتولّى آخر مكانه، من ملوك القوط، جعل الخلف قفلاً اقتداء منه بما فعل من كان قبله، فلما صارت ولاية لذريق، أو قل لما آل الملك إلى لذريق، آخر ملوك الأندلس الذين افتتحت الأندلس في زمانهم، ولما دخل العرب بلاد الأندلس فاتحين غانمين، فتحها طارق بن زياد أولاً، ثم موسى بن نصير ثانياً، فلما وصل موسى إلى هذا البيت، ورأى عجيب صنعه، وعظمة جدرانه وأعمدته، قال:

واللّه، لا أموت بغمّ هذا البيت، ولأفتحنّه حتى أعلم ما فيه، فاجتمعت إليه رجال الكنيسة من أساقفة وشمامسة، وراحوا يلتمسون موسى أن يعفيهم من فتح هذا البيت الذي ما فتح من قبله، ومن الاطلاع على ما فيه، وعبثا ذهبت

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٤.

محاولاتهم في إقناع موسى، كونه فاتحاً وأميراً وملكاً، أن يقتدي بمن سلف من ملوك القوط، فيضع قفلاً على هذا البيت صنيع السابقين له من الملوك. . . أقول عبثاً حاول رجال الكنيسة إقناع موسى بالعدول عن هذا الأمر، فأقدم على فتح البيت، فوجد فيه المائدة السالفة الذكر، مائدة سليمان بن داود، كما أنه وجد تصاوير العرب، وكتاباً مكتوباً فيه باللاتينية القوطية ما يلي:

«إذا فُتح هذا البيت دخل هؤلاء الذين هيئاتهم كذا وكذا ـ إشارة إلى العرب والمسلمين ـ هذه البلاد فملكوها»[1]

وبالفعل، إن صحت الرواية، أو الحادثة هذه التي هي أشبه بالخرافة أو الأسطورة، فإن دخول العرب والمسلمين إلى هذا البيت كان في ذلك العام الذي فُتح فيه إقليم الأندلس من بلاد إسبانية، على يد طارق أولاً، ثم موسى ثانياً.

مخاوف الوليد بن عبد الملك:

مرّ بنا أن الوليد بن عبد الملك، الخليفة الأموي بعث برسولين اثنين إلى الأندلس، هما مغيث الرومي، وأبو نصر، يحثّهما على حمل كتابه. الموجّه إلى كل من طارق بن زيادو موسى بن نصير، خاصةً بالتوقف عن متابعة عملية الجهاد، وبالعودة إليه في الشام، فما الداعي إلى ذلك؟ سؤال يطرح نفسه، واختُلف في الإجابة عنه، لكنّ أقربها إلى الصحة والقبول، هو أن موسى بن نصير الذي توغل في بلاد الأندلس، مفتتحاً ثغورها وحصونها ومدنها واحدة واحدة حتى أنه وصل إلى حدود جبال البيرينه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، موسى هذا في فتوحاته وانتصاراته أثار الشكوك في نفس سيّده الخليفة، فخاف هذا أن يقوم موسى بخلعه، وبالإقامة في بلاد الأندلس، ممتنعاً عن إرسال الفيء إليه، وعن الولاء للخليفة، مستقلاً بالبلاد التي فتحها، يؤيد هذه الشكوك تباطؤ موسى في إرسال الكتب إلى الوليد، وتلكؤه في وضع الخليفة في حقيقة ما يجري في تلك البلاد النائية، ما دفع الوليد بن عبد الملك إلى إصدار الأمر لأمير صلاته بالدعاء على موسى، كيما يلاقي جزاء إبطائه وإهماله وتقصيره في إبلاغ سيّده بما يدور هنالك، ويجري من فتوحات أين منها فتوحات المشرق، وفي الواقع فإن موسى ما قصّر مرّة في الاتصال بسيّده عن طريق الكتب التي كان يعلمه فيها بالفتح، كلما كان هذا الاتصال عن طريق إرسال الرسل والكتب إليه ممكناً، يؤكّد هذا الأمر رواية ابن

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣.

قتيبة التي تقول إن موسى لما فتح طليطلة حاضرة ملوك القوط بعث للتوّ بعليّ بن رباح إلى الشام ليعلمه بفتحها، وكان مع عليّ وفد من الأعيان رافقوه إمعاناً في تقديم الاحترام والتعظيم للخليفة الأموي، فسار عليّ وصحبه من المغرب إلى المشرق حتى وصلوا الشام، فلما دخلوا المسجد ليؤدوا الصلاة سمعوا إمام الجماعة، وقاضي المسلمين يدعو في عقب الصلاة على موسى، فانبرى عليّ بن رباح له وللمصلين، وصاح قائلاً: أيها الناس، اللّه اللّه في موسى، والدعاء عليه. . . واللّه ما نزع يداً من طاعة، ولا فارق جماعة، وإنه لفي طاعة أمير المؤمنين، والذبّ عن حرمات المسلمين، والجهاد للمشركين، وإني لأحدثكم عهداً به، وما قدمت الآن إلاّ من عنده، وإنّ عندي خبره، وما أفاء اللّه على يده لأمير المؤمنين، وما أمدّ به المسلمين، ما تقرّ به أعينكم، ويسرّ به خليفتكم[1]

ابن رباح يبدّد مخاوف الوليد:

خطب هذا الرسول الأمين لسيّده موسى خطبته تلك في جموع المصلين، متوجهاً في الوقت عينه بها إلى قاضي الجماعة، وإمام الصلاة التي كانت تنتهي بالدعاء على موسى، فانتشر خبر الخطبة خارج المسجد، وفي أحياء الشام انتشار النار في الهشيم، فلما وصل خبرها، إلى الخليفة، أرسل وراء صاحبها والوفد الذي كان معه، عنيت عليّ بن رباح وصحبه، فلما وصلوا إلى حضرته، وسمح لهم بالدخول عليه، بادر الخليفة علياً بالقول: ما وراءك؟ فقال: كلّ ما تحبّ يا أمير المؤمنين.

لقد تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره اللّه، ونصره، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه، بفتح من فتوحه[2]

هشّ الوليد بن عبد الملك لهذا الخبر، وانفرجت أساريره، وزال عنه غضبه، معيداً النظر في تفكيره السابق، وهو تغيير رأيه في موسى، فطلب إلى هذا الخطيب الفذّ المفوّه، رسول موسى، طلب إليه الكتاب، كتاب موسى الذي في حوزته، فدُفع إلى الوليد، فقرأه، فلما أتى على آخره، تقول الرواية، خرّ ساجداً شكراً للّه، فلما رفع رأسه أتاه للتوّ فتح آخر من موسى، فخرّ أيضاً ساجداً، ثم رفع

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٢.
(٢) نفسه ٢/ ٦٢.

رأسه ثالثة، فأتاه آخر بفتح آخر، فخرّ ساجداً، يقول صاحب الرواية، فظننت أنه لا يرفع رأسه أبداً[١].

وبصرف النظر عن هذه الرواية التي قد يفهم منها أن الوليد كان راضياً عن فتوحات موسى بن نصير، فإن ثمة ما يشير إلى أن الوليد، في إصراره على وقف الفتوحات، وعلى إحضار موسى إليه، والقدوم عليه في الشام، ما يدلّ على أن مخاوف الوليد من استقلال موسى بحكم الأندلس، وإعلانه دولة خارجة عن الدولة الأموية، لم تتبدّد، وهذا ما سوف نراه.

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٢.

الفصل الثالث

نهاية المطاف

مبحث أول

موسى يغادر الأندلس

في أفريقية:

قفل موسى بن نصير راجعاً إلى الشام ممتثلاً أمر الخليفة الذي كان بعث إليه طالباً منه عدم متابعة الفتوحات، والرجوع إلى المشرق على وجه السرعة، وهذا ما فعله موسى طائعاً أو مكرهاً إذ أنه أحضر أمتعته، ومراكبه، وجهّز مواليه وأهله بكل ما قدروا عليه، قيل: إن عدد العجل أو المراكب البرية، يعني العربات التي حملت عليها الأموال من الذهب والفضة والجواهر، والوشي وضروب الرياش بلغ مائة وثلاثين عجلة، حتى إذا ما وصل آخر البرّ الإسباني عند مضيق جبل طارق، اجتاز المضيق الفاصل بين البرّين الإسباني والأفريقي، فوطأت قدماه أرض أفريقيا بالمغرب الأقصى سنة أربع وتسعين للهجرة وقيل: سنة خمس وتسعين، وكان يصحبه في هذه الرحلة كل من طارق بن زياد، مولاه، أول فاتح للأندلس، وأهله وأولاده، ورسولا الخليفة الأموي مغيث الرومي، وأبو نصر، مستخلفاً في إشبيلية الواقعة في الجنوب الغربي الأندلسي، ولده عبد العزيز، والياً عليها وعلى ما حاذاها من البلاد الأندلسية من بعد أن اتخذها قاعدة لحكمه، ومستخلفاً على أفريقيا ولده عبد الله، وعلى طنجة والسوس والمغرب ولده، عبد الملك، وقيل: عبد الله[1]، مصطحباً معه في رحلته الأفريقية باتجاه المشرق كلاً من أولاده الآخرين عبد الملك، وعبد الأعلى، ومروان، ومئة من أشراف الناس، وخيرة العرب من قريش والأنصار، وسائر العرب والموالي الذين كان منهم عبد الجبار بن أبي سلمة، وعياض بن عقبة، والمغيرة بن أبي بردة، وزرعة بن أبي مدرك، وسليمان بن نجدة، ومصطحباً أيضاً مائة ثانية من وجوه البربر وأعيانهم، وقبائلهم التي من أشهرها كسيلة، وقصدر، هذا بالإضافة إلى عدد من ملوك البربر والروم، ومائة ثالثة من ملوك الأندلس وحكامها، من القوط والفرنجة وغيرهم، هذا بالإضافة كذلك إلى ما لا يحصيه العدّ من الجواري والأماء والرقيق والدوابّ، وباختصار، رجع موسى بن نصير من الأندلس، وحطّ قدميه في أفريقيا، وتوجه

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٨.

شرقاً عن طريق مصر، فأقبل، وبحسب تعبير صاحب «الإمامة والسياسة»، أقبل يجرّ الدنيا وراءه جرّاً لم يسمع بمثله، ولا بمثل ما قدم به[1]

في مصر وفلسطين:

تابع موسى بن نصير رحلته المشرقية باتجاه الشام، ومعه الحاشية والأهل والولد، والملوك والأعيان، وقد أقام بالقيروان أياماً، حتى وصل إلى مصر، فلما انتهى خبر وصوله إليها إلى الوليد بن عبد الملك، كتب إلى قرّة بن شريك، واليه عليها، يأمره أن يدفع من بيت المال المصري إلى موسى المبلغ الذي يريده أو يحدّده، فأقبل موسى قاصداً قرّة، وفي الطريق بلغه خبر موت قرّة، كان ذلك سنة خمس وتسعين من الهجرة، وهي السنة التي وصل فيها موسى إلى مصر، وكان أول عمل قام به أن دخل المسجد الجامع، فصلّى عند باب الصوال، وكان قرّة قد استخلف قبل موته ابن رفاعة، فلما سمع هذا بموسى بادر إلى ملاقاته، فأدركه، فسلّم عليه، فسأله موسى عمّن يكون، ثم رحّب به، وسار معه فنزل منية عمرو بن مروان، فعسكر فيها موسى ومن معه، فلما اطمأن جاءه ابن رفاعة، فكلمه في المال الذي كان استخرجه من سفيان بن مالك الفهري، فقال: هو لك. فأمر بدفع عشرة آلاف دينار إلى ولد سفيان بن مالك.. ثم إنه أقام ثلاثة أيام، وهو يستقبل الناس، والوفود التي كانت تؤم محل إقامته، ومعسكره، من كل أنحاء مصر، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً، ولقد خصّ موسى بالهدايا والأعطيات وُلد عبد العزيز بن مروان، خاصة، فأجزل لهم، وأكثر، ولقد جاءهم هو بنفسه، فسلّم عليهم، ثم تابع سيره شرقاً حتى وصل فلسطين، فاستقبله آل روح بن زنباع، أحسن استقبال، هو والذين معه، فنزل بهم معززاً مكرّماً، وأقام عندهم يومين، وقد نحروا له وللوفد المرافق له خمسين جزوراً، أي ناقة، ولقد خلّف موسى عند مضيفيه هؤلاء بعض أهله وصغار ولده، وأجاز آل مروان وآل روح بن زنباع بجوائز من الأماء والجواري والوصائف، وغير ذلك من الطرف، بما يفوق الوصف[2]

في الطريق إلى الشام:

كنّا أشرنا إلى أن موسى بن نصير خلّف ولده عبد الله على أفريقيا، وولده عبد الملك على طنجة والمغرب والسوس، وعبد العزيز على إشبيلية بالأندلس،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٨.

(٢) نفسه ٢/ ٦٨.

كما أشرنا إلى أن من جملة من كان في صحبة موسى في طريق العودة إلى المشرق، تلبيةً لأمر الوليد بن عبد الملك، رسوليْ هذا الخليفة أبا بحر، ومغيثاً الرومي، وقيل: إن موسى، وهو في الطريق راجعاً ومن معه، سأل مغيثاً أن يسلّمه العلج صاحب قرطبة، كان في إسار مغيث، فامتنع هذا عليه، وقال لموسى: لا يؤدّيه للخليفة الوليد غيري، فانتزعه موسى من بين يديه، وأراد الاحتفاظ به لوحده، فدخل بعضهم عليه، وخوّفه من بقاء هذا العلج حيّاً أن يدّعيه رسول الخليفة مغيث لنفسه، فأقدم موسى على قتل العلج، فحقد مغيث عليه، وهذا ما سوف يثير القلاقل، لموسى، ويسبّب له الإزعاج غداة يتولّى الخلافة سليمان بن عبد الملك من بعد وفاة أخيه الوليد، كما سنرى لاحقاً، إذ أن الرواية تقول إن سليمان بن عبد الملك حقد على موسى بن نصير بوشاية من كلّ من مغيث الرومي، وطارق بن زياد، هذين اللذين أخبراه خبر المائدة الذهبية، وكيف أن طارقاً زعم أنه هو الذي أصابها في الفتح، في طليطلة، فيما زعم موسى أنه هو الذي أصابها، ولما بان كذب موسى في ما بعد، أقصاه سليمان عن الإمارة، وأمر بحبسه، وتغريمه مائتيْ ألف ذهبية، كما سنرى فيما بعد[١]

عند الوليد بن عبد الملك:

وأخيراً قدم موكب موسى بن نصير، في أهله، أو قل بعض أهله، وحشمه، وأساراه، وأمائه، وجواريه، وعدّة من حكام الأقاليم في الأندلس، والمغرب، وأعيانهم الذين بلغت عدتهم أربعمائة من أفراد العائلات القوطية الحاكمة، والغنائم والتحف ونادر الطرف، قدم على الوليد بن عبد الملك في ذلك الموكب المهيب على الوليد وهو في المسجد الأموي بالشام، كان ذلك في أواخر أيامه، وفي مرضه الذي توفي بسببه، وكان سليمان، أخو الوليد، كما ذكروا، قد بعث إلى موسى من لقيه في الطريق قبل قدومه على الوليد، يأمره بالتريث في مسيره، ريثما يكون قضى الوليد نحبه، لا لشيء إلاّ لأجل استحواذ سليمان، الخليفة المنتظر بعد الوليد، على مغانم أفريقيا والأندلس، والاستئثار بها دون أخيه، فلما أتى موسى كتاب سليمان، وقرأه، قال في نفسه: خنت، واللّه، وغدرت وما وفيت، إن فعلت ذلك، واللّه، لا تربّصت، ولا تأخرت، ولا تعجلت، ولكني أسير بمسيري، فإن وافيت الوليد حيّاً لم أتخلف عنه، وإن عجلت منيته فأمره إلى اللّه[٢]

---

(١) نفح الطيب ١/٢٦٩.

(٢) الإمامة والسياسة ٢/٦٩.

وبالفعل رجع رسول سليمان، من بعد أن سلّم موسى كتاب سليمان، رجع إلى سيّده فأعلمه ما آل إليه الأمر، فآلى سلميان على نفسه لئن ظفر بموسى ليصلبنّه، أو ليأتينّ على نفسه، أي يقتله ويزهق روحه، حتى إذا ما اقترب موسى من الشام، وكان الوليد ما يزال على قيد الحياة، وكان هذا قد بعث إلى موسى بكتاب يستحثّه فيه المسير، خوفاً أن تعجل به المنيّة قبل القدوم عليه، وحذراً من أن يصل إلى الشام فتكون المنيّة قد عاجلته، فيتلقاه سليمان فيستأثر بالفيء والغنائم، لكن موسى كان أسرع بالقدوم، فدخل الشام، قاصداً قصر الخلافة، فدخل على الوليد، مسلّماً، ملقياً بالتحف والطرف والجواهر والكنوز، وبالوشي والديباج، وبالسرائر والأماء والوصيفات، وبمائدة سليمان بن داود الآنفة الذكر، بين يديه، وقيل: إن ثمة مائدة أخرى من الجزع الملون، وعدداً من التيجان الذهبية، ألقاها موسى بين يدي سيّده، فأمر الوليد باستلام هذا كله، لكنه، وبخصوص المائدة الأولى، أمر بها بأن تكسر، فكسرت، وعمد إلى أفخر ما فيها، وإلى التيجان الذهبية المحلاّة بالجزع، أمر بهذا كله بأن يجعل في الكعبة المشرفة، وبما تبقى من الحلل والجواهر أن تفرّق، وما عتم الوليد أن انتقل إلى جوار ربّه[1]

رواية أخرى:

وفي رواية ثانية قد تختلف بعض الشيء مع الأولى، أن موسى بن نصير دخل على الوليد بن عبد الملك نهار جمعة، وكان هذا جالساً على المنبر استعداداً للخطبة، للصلاة الجامعة، أو أثناء إلقائه الخطبة، وكان موسى قد ألبس كل أسير من أسارى السبي الذي غنمه تاجاً، وثياباً تنسجم وذلك التاج، وقد أمرهم جميعاً، وعدّتهم ثلاثون أسيراً، أن يدخلوا معه المسجد، فدخلوا المسجد، فما كان أحد يفرّق هيآتهم عن هيئة كل ملك من ملوك البربر، أو الروم، أو القوط، إذ أن كل تاج، وكل ثوب، كانا متفقين ولباس وتاج الملك الذي ينتسب إلى بلاده ذلك الأسير. . . دخل هؤلاء جميعاً على الوليد في المسجد، وكان بحوزة موسى الأموال والجواهر واللآلئ واليواقيت والزبرجد، والرياش، والأكسية المجزعة الموشاة، يحملها العبيد، وتحملها الأماء، دخلوا على الوليد في المسجد، وهو على المنبر، وكان يبدو عليه الضعف والوهن لعلّة كانت أصابته، فلما رآهم الوليد بهت، وأخذته الدهشة لهذه المواكب والصفوف من أبناء الملوك، والغنائم والفيء

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٩.

العظيم، نعم دهش الوليد لما دخل عليه ثلاثون ملكاً في أبهى حللهم وتيجانهم، فاصطفّوا من حول منبره، خمسة عشر ملكاً عن يمينه، وخمسة عشر عن يساره فيما الناس الذين كانوا حاضرين في المسجد يصيحون: موسى، موسى؟

أما موسى فتقدم على رأس هذه المواكب والصفوف نحو الوليد، فأخذ يده، فقبلّها، وقدّم الطاعة له، وأما الوليد فإنه حمد الله، وأثنى عليه، وشكره على هذا النصر والتأييد بالفتح، فتكلم بكلام لم يسمع من قبل مثله، وأطال في الكلام حتى فات وقت الجمعة، ثم صلّى بالناس، فلما فرغ جلس، ثم دعا موسى إليه، فصبّ عليه الخلع ثلاث مرات، وأجازه بخمسين ألف دينار، وفرض لولده جميعاً بالشرف نفسه، وفرض لخمسمائة من مواليه الشرف نفسه. ثم إن موسى أمر بإدخال ملوك البربر، وملوك الروم والإسبان والإفرنجة بالدخول على حضرة الوليد، ثم أمر بإدخال أعيان أهل البلاد الذين وفدوا معه من المغرب والأندلس، وجلّهم من عرب قريش، فأحسن الوليد جوائزهم، وفرض لهم في الشرف... وأقام موسى عند الوليد أربعين يوماً، من قبل أن يهلك الأخير، وينتقل إلى جوار ربّه[1]

صنيع سليمان بموسى:

كنّا ألمعنا إلى أن سليمان بن عبد الملك وليّ العهد من بعد أخيه الوليد بن عبد الملك، كان حقد على موسى بن نصير، من بعد أن كان بعث إليه من أخبره وهو في الطريق إلى الشام قادماً من مصر، أن يتريث في سيره ريثما يموت الوليد الذي كان يعاني من شدّة وطأة المرض عليه، فينتقل الملك إلى سليمان، فيصل موسى بغنائمه وسبيه والملوك الذين كانوا معه ودخلوا في طاعته، والأموال التي كان يحملها، والتحف التي كان يحتوشها، ومنها مائدة سليمان بن داود الذهبية ذات القيمة التاريخية والأثرية التي لا تقدر، يصل موسى إلى سليمان، كونه أضحى خليفة المسلمين، فيحوز جميع ما أتى موسى به من غنائم فتوحات الأندلس، وما كان رأي سليمان بخائب إذ يكفي أن يقدم موسى بهذه الكنوز فيضعها بين يدي سليمان حتى يعظم هذا في أعين الناس، وحتى تعظم معه الخلافة، التي كان يتربع على دستها، لكنّ موسى، كما علمنا من قبل، أبى ذلك، وظل يسير حتى وافى الوليد، كما أسلفنا، فسلّمه الفيء والأخماس والغنائم، ما جعل سليمان الذي تسلّم مقاليد الخلافة من بعد أخيه، يحقد على موسى، لا بل ينتقم من موسى بن نصير، بحيث إن سليمان أمر به، فأقعده في الشمس طويلاً، في رائعة النهار، وحمارّة

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٥.

القيظ، حتى كاد يهلك، ولم يكف هذا، بل غرّم سليمان موسى أموالاً طائلة رزح تحت أدائها والوفاء بها، وسدادها ردحاً طويلاً. . . وليس هذا فحسب. . بل إن سليمان دسّ إلى أهل الأندلس أن يقتلوا ولده الذي كان استخلفه عليها، عنيت عبد اللّه بن موسى، فقتلوه بالفعل سنة ٩٥هـ، إثر قيام الجند عليه، بدسيسة من أعوان سليمان، أو أنه، وكما قيل إن سبب مقتل عبد اللّه، وقيام الجند عليه، إنما كان بسبب خضوعه لزوجة لذريق المكنّاة بأمّ عاصم، والتي كانت دخلت في الإسلام، فبنى عبد اللّه بها في الكنيسة، فأمرته باتخاذ باب في مجلسه، تدخل عليه الناس ساجدةً له فعل الروم بملوكهم[١]

رواية ابن قتيبة:

هذا في «نفح الطيب»، للمقري، أما ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» فينقل عن عبد الرحمن بن سلام أن سليمان بن عبد الملك لما أفضت إليه الخلافة من بعد أخيه الوليد، بعث إلى موسى بن نصير، وكان ما يزال في الشام، إثر وفاة الوليد، فأُتي به، فعنّفه سليمان تعنيفاً قاسياً، وهدّده تهديداً مخيفاً، ووبّخه توبيخاً مرّاً، وزجره زجراً غير رحيم، وأنه قال له يومئذٍ فيما قال: أعليّ اجترأت، وأمري خالفت؟ واللّه، لأقلّلنّ عددك، ولأبدّدنّ مالك، ولأضعنّ منك ما كان يدفعه غيري ممّن كنت تمنيّه ـ إشارة إلى أخيه الراحل الوليد ـ أماني الغرور، وتخدعه من آل أبي سفيان، وآل مروان[٢]

فقال له موسى، وقد شعر بخطورة الموقف، لكنه تسلّح بالصدق والإيمان والثبات، قال له: واللّه، يا أمير المؤمنين، ما تعتلّ عليّ بذنب سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه. . . فأما ذكر أمير المؤمنين من أنه يقلّ عددي، ويفرّق جمعي، ويبدّد مالي، ويخفض حالي، فذلك بيد اللّه، وإلى اللّه، وهو الذي يتولّى النعمة على الإحسان إليّ، وبه، أستعين، ويعيذ اللّه عزّ وجلّ أمير المؤمنين، ويعصمه.أن يجري على يديه شيئاً من المكروه لم أستحقه، ولم يبلغه ذنب اجترمته.

كان هذا دفاع موسى عن نفسه، وقوله تبياناً لحقيقة حاله، وهو قول، كما لاحظت، ما خرج فيه عن حدود الطاعة لسليمان، لكنّ هذا أمر به بأن يوقف في يوم صائف شديد الحرّ على طريقه، وكانت بموسى، تقول الرواية، نسمة، أي

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٩.
(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٩.

ضيق في النفس، فلما أصابه حرّ الشمس، وأتعبه الوقوف، هاجت عليه علته، وهي النسمة، أو الربو، فراحت قُرب العرق تتصبّب منه، فما زال كذلك حتى سقط على الأرض مغشيّاً عليه من شدّة الحرّ، ورهق الوقوف طويلاً في الهاجرة[1].

توسّط عمر بن عبد العزيز:

تقول الرواية، حصل هذا لموسى بن نصير، في محفل من الخاصة والعامة، أي أنّ نكال سليمان بموسى كان في مشهد من الناس، ومن حسن حظّ موسى أن في هؤلاء النظارة أو الشهود عمر بن عبد العزيز.. وهو الذي سيضحي خليفة سليمان في حكم بني أمية، عمر هذا كان حاضراً، وشاهداً على عذاب موسى بن نصير، فقال معتبراً: ما مرّ بي يوم كان أعظم عندي، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم، لِما رأيت ما حلّ بالشيخ موسى، وما كان عليه من بُعد أثره في سبيل اللّه، وما فتح اللّه على يديه، وهذا يُفعل به!؟[2]

قال هذا عمر بن عبد العزيز في نفسه، والحزن يفطر قلبه، ثم التفت إلى سليمان فلم يستطع أن يكلّمه حذراً من بطشه ونكاله أكثر بموسى، لكنّ سليمان قرأ ما في قلب عمر، فالتفت إلى عمر، وقال له: يا أبا حفص ـ كنية عمر بن عبد العزيز ـ ما أظنّ إلاّ أني قد خرجت من يميني ـ إشارة إلى اليمين التي كان أقسمها بعقاب موسى ـ ؟ قال عمر: فاغتنمت ذلك منه، فقلت يا أمير المؤمنين، شيخ كبير بادن، وبه نسمة قد أهلكته، وقد أتت على ما فيه من السلامة لك من يمينك، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل اللّه، العظيم الغناء على المسلمين.. اكتفى عمر بهذا القدر من الكلام، ومن قصد الخطاب، لكنّه عقب في نفسه قائلاً: والذي منعني من الكلام فيه ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه، فخشيت إن ابتدأته أن يلح عليه، وهو لحوح. قال، فلما قال لي ما قال آخراً، حمدت اللّه ـ والكلام لعمر بن عبد العزيز ـ على ذلك، وعلمت أن اللّه قد أحسن إليه، وأن سليمان قد ندم فيه. فقال سليمان: من يضمّه؟ فقال يزيد بن المهلب: أنا أضمّه، يا أمير المؤمنين. قال سليمان: فضمّه إليك يا يزيد، كانت الحال بين يزيد وموسى لطيفة خاصة ـ ولا تضيّق عليه. فانصرف به يزيد، وقد قدم إليه دابّة ابنه مخلد، فركبها موسى، فأقام

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٦٩.

(٢) نفسه ٢/ ٧٠.

أياماً. . . ثم إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح، حتى افتدى منه موسى بثلاثة آلاف دينار[١]

اختلاف الرواية:

ثمة اختلاف كبير في الروايات حول ما صنعه سليمان بن عبد الملك بموسى بن نصير، وإن من هذه الروايات ما هو قريب من الرواية السالفة الذكر، إلى حدّ ما، تقول إحداها إن سليمان بن عبد الملك لما استُخلف بعد أخيه الوليد، وكان قد حنق على موسى، كما بيّنا من قبل، وعلى الحجاج بن يوسف الثقفي[٢]، وكان قد حلف لئن ظفر بهما ليصلبنّهما، أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فأتاه، فقال:

إني صالب غداً موسى بن نصير، فأرسل عمر إلى موسى فأتاه، فقال له: يا ابن نصير، إني أحبّك لأربع، إحداها بُعد أثرك في سبيل الله، وجهادك لعدوّ الله، والثانية حبّك لآل محمد ﷺ، والثالثة حبّك لعياض بن عقبة، لما تعلم من حسن رأيي فيه، وعياض هذا كان من خيرة عباد الله، وصلاّحهم، وزهّادهم، والرابعة إن لأبي عبد العزيز عندك يداً وصنيعة، وأنا أحبّ أن تتمّ يده وصنيعته حيث كانت، وقد سمعت أن أمير المؤمنين، يعني سليمان، صالبك غداً، فاكتب وصيّتك حتى إذا متّ كنت قد رتبت أمورك على ما تحب، وانظر فيما أنت فيه ناظر من أمرك.

فقال له موسى: قد فعلت، وأسندت ذلك إليك. فقال له عمر: لو قبلت ذلك من أحد قبلت منك، ولكن أسند إلى من أحببت، فانصرف، فلما أصبح اغتسل موسى، وتحنّط، استعداداً للصلب، فلمّا انتصف النهار، واشتدّ الحر، وكان ذلك في حمارّة الصيف، دعا سليمان موسى، فأدخل عليه، والتعب بادٍ على وجهه، وكان جسيماً بادناً، يعاني من نسمة، أي ربوٍ يعرض له، فلما وقف بين يديه شتمه سليمان، وخوّفه، وتوعّده، فقال له موسى: أما، والله، ما هذا بلائي، يا أمير المؤمنين، ولا قدر جزائي، إني لبعيد الأثر في سبيل الله، العظيم الغناء على المسلمين، مع سابقة آبائي مع آبائك، ونصيحتي لهم. فقال له سليمان: كذبت، قتلني الله إن لم أقتلك. فقال له موسى: أما،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٠.

(٢) حنق سليمان على الحجاج لما سمعه من تدبيره أمور عزله عن الخلافة، والعمل على تولية يزيد، أخيه، من بعده.

واللّه، لمن في بطن الأرض أحبّ إليّ ممّن على ظهرها، فاصنع ما أنت صانع. فقال له سليمان: ومن أولئك الذين هم في بطن الأرض؟ قال موسى: مروان، أي جدّ سليمان، وعبد الملك، أي أبوه، والوليد، أي أخوه، وعبد العزيز، أي عمّه. فقال له سليمان مصرّاً على فعله وموقفه: قتلني اللّه إن لم أقتلك. فقال له موسى: ما أنت بفاعل، يا أمير المؤمنين. فقال سليمان: ولمْ، لا أمّ لك؟ فقال موسى: إني لأرجو أن لا يكرم موسى بهوان أمير المؤمنين.

فالتفت سليمان، وقد تأثر لحال موسى وقد ارتفع نفسه، وانقطع من شدّة الإعياء والتعب، التفت إلى عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أرى يميني إلاّ قد برئت، يا عمر؟ فاغتنمها عمر منه، ولم يبال أن يحنث بإحياء رجل من المسلمين، فقال لسليمان: أجل، يا أمير المؤمنين، برئت يمينك، إن شاء اللّه، امرؤ كبرت سنّه، وكثر لحمه، وبه نسمة وبُهر، أي انقطاع نفس، وسقم، فما أراه إلاّ ميتاً. فالتفت سليمان إلى جلسائه، فقال: من يأخذ هذا الشيخ، فيستخرج منه هذه الأموال؟ فقال يزيد بن المهلّب: أنا، يا أمير المؤمنين. قال: فخذه، ولا تمسّه، وضع العذاب على ولديه مروان وعبد الأعلى. فخرج به يزيد، فحمله على دابة، ثم انصرف به إلى منزله، فأكرمه وبرّه، وقال له: أطع أمري، وأجب أمير المؤمنين إلى مقاضاته عن نفسك، وعن ولديك، وحمّلني كل ما قاضيته عليه. فقال له موسى: أما إذا كنت أنت صاحب هذا الشأن، فأنا غير مخبرك فيما ضمنت لأمير المؤمنين، وأيم اللّه، لو أمر سواك بي، وأمره بالبسط عليّ، لكان أحبّ إليّ أن ألقى اللّه عزّ وجلّ، وأقرب إليّ من أن يأخذوا مني ديناراً واحداً، ولكن أدّيا يا ابنيّ عن أنفسكما وعن أبيكما. فقالا: نعم. فغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان، فأعلمه بذلك، وبأن موسى رضي بمقاضاته، فأدخله سليمان عليه، فقال موسى: أرأيت، يا أمير المؤمنين، لو لم أقاضك، ما كنت فاعلاً بي؟ فقال سليمان: أضع العذاب عليك، وعلى ابنيك حتى أبلغ ما أريد، أو آتي على أنفسكم. فقال موسى: الآن طابت نفسك، يا أمير المؤمنين، فأعطني أربع خصال، ولك ما دعوتني إليه من هذا المال. فقال سليمان: وما هنّ؟ قال: لا تعزل عبد اللّه بن موسى عن أفريقية وجميع عمله سنتين، وأن كل ما جباه عبد اللّه بأفريقية، وعبد العزيز بالأندلس، فهو لي فيما قاضيت عليه أمير المؤمنين، وأن تدفع إليّ طارقاً مولاي، وأكون أملأ به عيناً وبماله. فقال له سليمان: أما ما سألت من دفع طارق إليك فتكون أملأ عيناً به وبماله، فليس هذا جزاء أهل النصيحة لأمير المؤمنين، فلست بفاعل، ولا محلّ بينك وبين عقوبته،

ولا أخذ ماله. فقاضاه موسى على مال، فأجّله في ذلك، ثم خلّى سبيله[١]

المقاضاة:

مرّ بنا أن موسى بن نصير لو لم يقبل بمقاضاة سليمان بن عبد الملك إياه، لوضع سليمان، وهو الخليفة والآمر والناهي، على موسى العذاب، وعلى ولديه إلى ما شاء اللّه، فما معنى هذه المقاضاة، وكم كلّفت موسى من الأموال الطائلة سداداً لذلك الدين المفرط الذي ألزم به موسى نفسه حتى نجا من الهلاك؟ المقاضاة، لغةً، من قاضى فلان فلاناً إلى الحاكم أو القاضي، أي رافعه. .

وقاضى فلان ـ هنا موسى أو سليمان ـ فلاناً، على مالٍ، أي صالحه عليه، وهذا هو المعنى المقصود من مقاضاة موسى بن نصير من قبل سليمان، وهي لا تكون، في الغالب، إلاّ مكتوبة في كتاب، يقال له: كتاب المقاضاة.

والآن على ماذا قاضى موسى سليمان؟

نصّ المقاضاة:

أورد صاحب «الإمامة والسياسة» نصّ الكتاب الذي تضمّن مقاضاة سليمان لموسى، بتمامه وكماله، وعنه أخذ سائر المؤرخون، ونسخة القضيّة، يعني كتاب المقاضاة، هي التالية:

«هذا ما قاضى عليه عبدُ اللّه سليمان، أمير المؤمنين، موسى بن نصير، قاضاه على أربعة آلاف ألف دينار، وثلاثين ألف دينار، وخمسين ديناراً ذهباً طيبة وازنة يؤدّيها إلى أمير المؤمنين، وقد قبض منها أمير المؤمنين مائة ألف، وبقي على موسى سائر ذلك، أجلّه أمير المؤمنين إلى سير رسول أمير المؤمنين إلى ابنيْ موسى الذي بالأندلس، والذي بأفريقية، يمكث شهراً بالأندلس، وليس له أن يمكث وراء ذلك يوماً واحداً، حتى يقفل راجعاً بالمال، إلى ما كان من أفريقية وما دونها. . . وليس لموسى أن يتكثّر بشيء مما كان عليه من العمل، منذ استخلف اللّه أمير المؤمنين من ذمّة، أو فيء، أو أمانة، فهو لأمير المؤمنين يأخذه ويقتضيه، ولا يحسبه موسى من غرامته، فإن أدّى موسى الذي سمّى أمير المؤمنين في كتابه هذا من المال إلى ما قد سمّى أمير المؤمنين من الأجل، فقد برئ موسى وبنوه وأهله ومواليه، وليست عليهم تبعة ولا طلبة في المال، ولا في العمل، يقرّون حيث يشاؤون، وما كان قبض موسى أو بنوه من عمال موسى إلى قدوم

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٥ ـ ٧٧.

رسول أمير المؤمنين أفريقية، فهو من الذي على موسى من المال، يحسب له من الذي عليه، ما لم يقبض قبل وصول رسول أمير المؤمنين، فليس منه في شيء، وقد خلّى أمير المؤمنين بين موسى وأهله ومواليه، ليس له ظلم أحد منهم، غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقاً مولاه، ولا شيئاً من الذي قد أباه عليه أوّل يوم»[١].

الكاتب والشهود:

هذا، ولقد شهد على هذه المقاضاة، الكتاب، كلٌّ من أيوب بن أمير المؤمنين، وداود بن أمير المؤمنين، وعمر بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن الوليد، وسعيد بن خالد، ويعيش بن سلامة، وخالد بن الريّان، وعمر بن عبد الله، ويحيى بن سعيد، وعبد الله بن سعيد. وقد كتبه جعفر بن عثمان في جمادى سنة تسع وتسعين[٢]

يد موسى إلى المهلب:

كتاب مقاضاة، كما لاحظت، صيغ بدقة متناهية، وتفنّن فيه الخليفة في فرض شروطه، وقبله موسى راضياً قانعاً، بل صاغراً، وقبل سداد هذا الدين الضخم الذي تنوء بحمله الجبال، طمعاً في نجاته من الهلكة، واعتماداً على ضمانة يزيد بن المهلّب، وتبرّعه بسداد ما لا يقدر موسى على سداده، وذلك عرفاناً منه بالجميل، وتقديراً للصنيع الذي كان صنعه موسى مع والده المهلّب، وما كان جزاء الإحسان إلاّ الإحسان، فما هو هذا الصنيع، وما هي تلك اليد التي كانت لموسى إلى المهلّب وذوي المهلب؟

لكن قبل ذلك نودّ معرفة ما جرى إثر ارفضاض جلسة المقاضاة، وتوقيع الشهود على كتاب المقاضاة؟

تقول الرواية إن سليمان لما قاضى موسى، وكتب الكتاب، ووقّع عليه من قبل الشهود، انبرى سليمان فأمر يزيد بن المهلب بتخلية موسى وولديه، والكفّ عنه، فأعانه يزيد بمائة ألف دينار، دفعت لسليمان للتوّ، أما موسى الذي أُخلي سبيله، وأطلق سراحه، فذهب إلى بيته، فاستخرج من موضع فيه حُقّاً، أي وعاءً، كان فيه ثلاث خرزات من أنفس الأحجار الكريمة، فبعث بها إلى يزيد، فقوّمها هذا، فكان ثمنها ثلاثمائة ألف دينار، فأخذها منه من بعد أن قوّم ثمنها، وقال

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٧.

(٢) نفسه ٢/ ٧٧.

لموسى: أتدري لِمَ قلت لأمير المؤمنين، أنا أضمّه وأضمنه؟ قال موسى: لا. قال: خفت أن يجيبه قبلي من لا يرى فيك ما أنا عليه لك، وكانت لك يد عند المهلّب، رحمه اللّه، فأحببت أن أجزيك بها عنه، وباللّه، لو لم تفعل، وأبيت عن المقاضاة ما شاكتك عندي شوكة حتى لا يبقى لآل المهلب مال ولا ثوب[1]

أما اليد التي كان أسداها موسى بن نصير إلى المهلب، أبي يزيد ضامن دين موسى للخليفة سليمان، ويزيد بن المهلب، هذا، كما هو معلوم، كان عامل الأمويين على خراسان بعد وفاة أبيه المهلّب، والمهلب، أبوه، ويقال له المهلب بن أبي صفرة، من أشهر الولاة الأمويين قاطبة، كان في أول أمره أميراً على البصرة لمصعب بن الزبير، ثم حارب الخوارج، وظفر بهم، فولاّه عبد الملك بن مروان خراسان، بقي فيها حتى وفاته سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م، أقول أما اليد التي كان أسداها موسى إلى المهلب فيرجع ذلك إلى السنة التي كان عبد الملك بن مروان ولّى فيها بشر بن أبي مروان، أخاه، والياً على العراق، جاعلاً من موسى بن نصير وزيراً له ومشيراً، ولما اشتدّ خطر الأزارقة من الخوارج، واستفحل أمرهم في أنحاء الدولة الأموية وأقاليمها، صدر أمر عبد الملك بن مروان لأخيه بشر، الوالي على العراق، بأن يولي المهلب بن أبي صفرة قتال القوم، لكن ولسوء ظنّ بين بشر والمهلّب، ولّى بشر الوليد بن خالد هذا الأمر، وكلّفه بتلك المهمّة التي لا يقوى عليها إلاّ الأشدّاء، ففشل الوليد في مهمته، وانهزم من أمام الأزارقة، ما استدعى بشراً أن يكلّف غيره، ففشل أيضاً، فجاء بشراً كتاب عبد الملك وفيه تفنيد لما أقدم عليه، وتقريع له على عدم تولية المهلّب، وإقصائه عن هذه المهمة التي لا يقوى عليها سواه، لكنّ بشراً ركب رأسه، وأصرّ على عدم تولية المهلب، حتى إذا ما استفحل خطر الأزارقة، وقويت شوكتهم، وراحوا يشنّون الغارات على المدن في الأمصار، لجأ بشر، إزاء هذا الواقع، إلى استشارة كل من أسماء بن خارجة، وعكرمة بن ربعي، وموسى بن نصير في أمر المهلّب، وفي تردّده في تكليفه مهمة النهوض إلى قتال الأزارقة، فوافقه الأوّلان على تردّده، وشاركاه سوء الظنّ في المهلب، غير أن الثالث، وهو موسى بن نصير فكان أنصح، وأفصح، وأصدق في مشورته، إذ قال لبشر ناصحاً مزكّياً المهلّب، ومسدداً ومصوّباً: إن أمير المؤمنين لا يحتملك على المعصية، وليس مثل المهلّب في فضله وشرفه، وقدره في قومه ومعرفته، أفضيت أو جفوت،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٨.

فإن كان بلغك أمر يقال إنه أتاه، فاكشفه عنه، حتى تعلم عذره فيه أو ذنبه[(١)]

تقول الرواية، فلم يزل موسى يردّد أمر المهلب على بشر، ويعطفه عليه، بعد أن كان همّ بشر بقتله إن ظفر به، حتى أرسل بشر إليه، فجاءه المهلب، فقبل منه بشر، وولاّه قتال الخوارج، وقد أعان يومئذٍ موسى المهلب على تلك المهمة الصعبة بخمسين فرس ومائة بعير[(٢)]

صنيع آخر:

ليس هذا، فحسبُ، ما صنعه موسى للمهلب بن أبي صفرة، أبي يزيد الذي تحمّل ديات موسى، وتكفّل ضمان سداد ديونه التي أرهقه بها سليمان بن عبد الملك، بل إن الرواية تقول، وهذه رواية محمد بن عبد الملك، إنّ المهلّب في الزمن الذي كان يخاف بشر بن مروان فيه على نفسه، خرج إلى مالٍ له وحده، فكان فيه وحده، والمال، هنا، بمعنى العقار، فأتى رجل إلى بشر في مجلسه، وكان في المجلس موسى حاضراً، فقال لبشر: أيها الأمير، إن كان لك بالمهلب حاجة فابعَث خيلك إلى الموضع الفلاني، وسمّى الرجل الموضع الذي فيه المهلب، فإن فيه المهلب وحده، وليس معه رجل من قومه، أو غيرهم، يحرسه. فسرّ بشر بهذا الخبر، بل قل بهذه الدسيسة أو الوشاية، أو السعاية، فأمر بالخيل، فسارت باتجاه الموضع الذي فيه المهلب، وهو على فراسخ قليلة، من مجلس بشر، فاهتبلها موسى بن نصير فرصة، فنهض للتوّ من مجلسه، فبعث بغلام له على فرس إلى بشر قائلاً له: يا غلام، أنت حرّ لوجه اللّه تعالى، إن أنت سبقت خيل بشرٍ حتى تنتهي إلى الموضع الفلاني، وسمّاه له، فتأتي المهلب، فتقول له: إن موسى يقول لك النجاة، النجاة بنفسك! وإن هي إلاّ ساعات قلائل حتى انتهى الغلام إلى المهلب من قبل أن تأتيه خيل بشرٍ، فأعلمه بالأمر، فاستوى المهلب على فرسه، مطلقاً العنان لها في أرجاء الأرض، فلما جاءت خيل بشر لم تجد أحداً هناك، فقفلوا راجعين إلى بشر خائبين، فأعلموه بالأمر، وقد خاب سعي بشرٍ في قتل المهلب[(٣)]

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٨.

(٢) نفسه ٢/ ٧٨.

(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٨ ـ ٧٩.

مبحث ثانٍ

الانتقام من عبد العزيز بن موسى

تمهيد:

صحيح أن سليمان بن عبد الملك، الخليفة الأموي بالشام، رضي عن موسى بن نصير، ورفع عن رأسه السيف، ولم ينتقم منه ظاهراً، وإن كان سجنه لبعض الوقت، لا بل قرّبه إليه، وحدّثه، وحادثه، وسامره، كيف وقد رهن موسى كل ما ملك سداداً للدين الذي ألزمه سليمان به، أو قاضاه عليه، وقد سلف أن يزيد بن المهلب، وسداداً لدين معنوي، واعترافاً منه بصنيع موسى مع والده المهلب، قام بدفع ما توجّب على موسى من آلاف الدنانير، بل من المائتي ألف ذهبيّة كان غرّمه بها، فحملت لخم، قبيلته، عنه تسعين ألف ذهباً، والباقي تعهد بها يزيد بن المهلب، على ما قيل[1]، وصحيح أن الخليفة أبقى على عبد الله بن موسى والياً على طنجة وأفريقيا، وعلى عبد العزيز ولده الآخر والياً على الأندلس، في إشبيلية، لكن الصحيح أيضاً هو أن هذا الخليفة لم يرض في داخله أبداً عمّا اقترفت، في زعمه، يدا موسى بن نصير، من مخالفة لأمره لما كان أمره وهو وليّ العهد، بالقدوم ومن معه، وما معه من الكنوز والجواهر والفيء عليه دون أخيه الخليفة الوليد، أو ربّما، وكما قيل كان أمره بالتريث في القدوم على الخليفة، وكان هذا مريضاً، ريثما يموت فيقدم على سليمان بكنوزه ورقيقه وفيئه ومغانمه. . . أجل، لقد ظلّ سليمان في داخله حاقداً على موسى، وإن أظهر له الودّ والبشاشة والبشر، لا بل إنه ظلّ منطوياً على الانتقام من ولده عبد العزيز الوالي على الأندلس، وقد دُسّ إليه، أن عبد العزيز يعمل على خلع الخليفة في الأندلس، وقد يستقلّ بالولاية فيجعلها دولة دون الأمويين، وهذا ما لم يحصل بالفعل، لكن الذي حصل هو أن سليمان أراد الانتقام من عبد العزيز، وقد توجّس خيفة منه، ومن الفتوحات التي تابعها بعد أبيه موسى، وقد سنحت الفرصة لمثل هذا الانتقام، فهل حصل ذلك، ومتى وكيف؟

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٩.

كتاب سليمان إلى عبد الله بن موسى:

تقول الرواية، وهي رواية صاحب «الإمامة والسياسة» إن عبد العزيز بن موسى لما بلغه، وهو والٍ على الأندلس، ما فعل سليمان بأبيه، لجهة مقاضاته الأموال التي لا قبل لموسى القيام بسدادها لولا صنيع يزيد بن المهلب معه، تكلّم عبد العزيز بكلام خفيف غمز فيه من قناة الخليفة سليمان، وما كان في هذا إلاّ تنفيساً عمّا أصابه من الغمّ، ومن المكروه الذي أصاب أباه، فنمي كلام عبد العزيز إلى سليمان مضخماً ما أوجس منه سليمان خيفةً، وكأنّ عبد العزيز يريد الانفلات من الطاعة، والاستقلال بالأندلس عن الدولة الأموية، فكتب سليمان إلى كلّ من حبيب بن أبي عبيدة، وابن وعلة التميمي، وسعد بن عثمان بن ياسر، وعمرو بن زياد اليحصبي، وعمر بن كثير، وعمرو بن شرحبيل، كتاباً يعلمهم فيه بالذي بلغه أو نُمي إليه من كلام عبد العزيز، ويطلب إليهم فيه الشخوص إلى عبد العزيز، والسعي إلى الانتقام منه، واعداً من يقوم بهذا الفعل الذي أقلّه قتل الرجل، بالإمارة، والولاية، ليكون خلفاً له على بلاد الأندلس، وقد كلّف واليه على أفريقية وطنجة عبد الله بن موسى عن طريق كتاب بعثه إليه، بإيفاد أولئك النفر من الرجال إلى الأندلس دونما أن يعلمه بحقيقة ما جرى بينه وبين أولئك المكلفين بتلك المهمّة الشديدة الخطورة والفداحة[1].

كتاب سليمان إلى عبد العزيز بن موسى:

في الوقت عينه، وإتماماً للمؤامرة، وإنجاحاً لسياسة الغدر والكذب والانتقام، كتب الخليفة إلى عبد العزيز كتاباً جاء فيه:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين علم ما أنت بسبيله من العدوّ، وحاجتك إلى الرجال أهل النكاية والغَناء، فذُكر له أن بأفريقية رجالاً منهم، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بأشخاصهم إليك، فولّهم أطراف ولايتك وثغورك، واجعلهم أهل خاصّتك[2].

كتاب سليمان إلى النفر الغادرين:

في هذا الوقت عينه، كتب سليمان إلى الرجال المارّ ذكرهم والذين كلّفهم القيام بذلك الدور الخسيس، كتب إليهم يقول: إني قد بعثت لكم بكتاب إلى أهل

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٩.
(٢) نفسه ٢/ ٧٩.

الأندلس بالسمع والطاعة لكم، والغدر في قتله، فإذا ولاكم أطرافه فأقرّوا عهدي على من قبلكم من المسلمين، ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه[١].

ابن أخت موسى يشارك في المؤامرة:

لما قدم كتاب الخليفة على عبد اللّه بن موسى بأفريقية أمر بالقوم الذين كان سمّاهم له الخليفة، فأشخصهم إلى الأندلس، فخرجوا حتى قدموا على عبد العزيز بالأندلس، ومعهم كتاب سليمان، فسلمّوه الكتاب، وفيه يأمر عبد العزيز بإكرام النفر والإلطاف لهم، فصدّق المسكين الطيّب عبد العزيز مقولة سيّده، فراح يقرّبهم إليه، ويبالغ في اللطف والإكرام قائلاً لهم: اختاروا أيّ نواحيّ وثغوري شئتم، فضربوا الرأي، فقالوا: إنكم إن فعلتم ما أنتم فاعلون، ثم رجعتم إليه من أطرافه، لم نأمن أن يميل معه معظم الناس، وذلك لأن في يديه القوة والأموال والموالي، ولكن اعملوا رأيكم في الفتك به، عن طريق ابن أخت موسى بن نصير، واسمه أيوب بن حبيب، المقيم في هذا القطر، وله شأن عظيم، وكان هذا في نفسه حاقداً على عبد العزيز، فلقوه، ودعوه إلى أنه إن قتله فهو مكانه، فقبل، وبايعوه على ذلك، ثم راحوا يمعنون في المضيّ قُدماً، ويعملون على إنجاح الخطّة بإحكام وحسن تدبير[٢].

الانتقام:

من أجل هذه الغاية مضوا في هذه السبيل، فلقوا عبد اللّه بن عبد الرحمن الغافقي، سيّد أهل الأندلس، وأصلحهم، فأعلموه بالأمر، من بعد أن أقرأوه كتاب سليمان، فانتفض للتوّ، مستغرباً الأمر، مستهجناً فظيع نيّة سليمان وعزمه، قائلاً لهم: قد علمتم يد موسى عند جميعكم، صغيركم وكبيركم، وإنما بلغ أمير المؤمنين أمر كُذب عليه فيه، والرجل ـ أي عبد العزيز ـ لم ينزع من الطاعة يداً، ولم يخالف فيستوجب القتل، وأنتم ترون، وأمير المؤمنين لا يرى، فأطيعوني، ودعوا هذا الأمر، فأبوا، ومضوا على رأيهم مجمعين على قتل الرجل، فوقفوا له خارجاً، فلما خرج لصلاة الصبح، ودخل المحراب، وكبّر تكبيرة الإحرام، وراح يقرأ السورة الفاتحة، ثم بعض آيات من سورة الواقعة، ضربه حبيب بن أبي عبيدة ضربة أدهشته، وما صنع شيئاً، فقطع عبد العزيز صلاته، وولّى خارجاً، فتبعه القوم، فقام ابن وعلة التميمي بقتله، فلما أصبح القوم، أخرج النفر كتاب سليمان

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٩.

(٢) نفسه ٢/ ٨٠.

الذي يأمر فيه بالانتقام من عبد العزيز، فلم يقبل أهل الأندلس هذا، فولّوا عليهم عبد اللّه بن عبد الرحمن الغافقي، أما حبيب بن أبي عبيدة، شقيّ القوم، فقد بادر إلى حمل رأس عبد العزيز، والاحتفاظ به حتى يقدم على سليمان بن عبد الملك[١]

عزل عبد اللّه بن موسى:

ونتابع الرواية في هذا السياق، لمعرفة ما آل إليه حال رأس عبد العزيز، تقول الرواية إن سليمان بن عبد الملك لما أيقن أن الوفد أو الرهط الذي كان كلّفه اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير، قد وصل بلاد الأندلس، وظنّ أنه قد بطش بطشته، وأدّى ما كلّف به، وقام به أحسن قيام، بعث بكتاب إلى عبد اللّه بن موسى، الوالي على أفريقية وطنجة والسوس، يأمره فيه باعتزال منصبه، والتنحية عن هذا المقام، وهذا ما صدع له عبد اللّه، وقد أدرك أن يد الانتقام قد طاولته مثلما طاولت أباه موسى، من قبل، وأخاه عبد العزيز، كان ذلك في شهر ذي الحجة من سنة ثمان وتسعين للهجرة[٢]

رأس عبد العزيز بن يدي سليمان:

أقبل الوفد، رهط المؤامرة، وفد سليمان الذي كان أرسله إلى الأندلس، من أجل اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير، أقبلوا على سليمان، فوضعوا رأس عبد العزيز بين يديه، فأرسل إلى موسى أن يحضر إليه، فحضر، فلما أخذ مكانه من المجلس أمر سليمان برفع الغطاء عن الرأس، وقال مخاطباً موسى: أتعرف هذا الرأس، يا موسى؟ قال: نعم، هذا رأس عبد العزيز بن موسى، ولم يحرّك ساكناً، رباطة جأش ما بعدها رباطة، وصبر على الأذى أين منه صبر أولي العزم، ما جعل المجلس يرين عليه الصمت إزاء هذا الموقف الذي هو في غاية الحساسية والحرج[٣]

خطبة موسى:

أبدى موسى بن نصير من رباطة الجأش ما قلّ نظيره، لكنه، اغتنمها فرصة، فقام، فحمد اللّه، وخطب قائلاً: هذا رأس عبد العزيز بن موسى، بين يديك، يا

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٠.

(٢) نفسه ٢/ ٨٠.

(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٠.

أمير المؤمنين، فرحمة اللّه عليه، فلعمر اللّه، ما علمته إلاّ في النهار صواماً، وفي ليله قوّاماً، شديد الحبّ للّه، ولرسوله، بعيد الأثر في سبيله، حسن الطاعة لأمير المؤمنين، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين، فإن يك عبد العزيز قضى نحبه، فغفر اللّه ذنبه، فواللّه، ما كان بالحياة شحيحاً، ولا من الموت هائباً، وليعزّ على عبد الملك، وعبد العزيز، والوليد أن يصرعوه هذا المصرع، ويفعلوا به ما أراك تفعل، ولهو كان أعظم رغبة فيه، وأعلم بنصيحة أبيه، أن يسمعوا فيه كاذبات الأقاويل، ويفعلوا به هذه الأفاعيل(١)

موسى يأخذ رأس عبد العزيز:

خطب موسى خطبته تلك مؤبّناً ولده عبد العزيز، منوّهاً بمناقبه وأفضاله، وخلقه، وحسن سيرته، غامزاً من قناة سليمان، فاضحاً بصورة غير مباشرة، ظلمه، وافتئاته عليه، وجرأته على حرمات اللّه، فأدرك سليمان منه هذا، ليردّ على موسى بالقول: بل ابنك المارق من الدين، والشاقّ عصا المسلمين، المنابذ لأمير المؤمنين، فمهلاً أيها الشيخ الخرف. فقال موسى: واللّه، ما بي من خرف، ولا أنا من الحق بذي جنف، أي بعد، ولن تردّ محاورة الكلام مواضع الحِمام ـ الموت ـ، وأنا أقول كما قال العبد الصالح ـ يعني يعقوب النبيّ ـ (فصبر جميل، واللّه المستعان على ما تصفون). ثم إن موسى استأذن سليمان في أخذ رأس ولده عبد العزيز، فأذن له، فحمل الرأس، وعيناه مغرورقتان بالدمع، ثم جعله في طرف قميصه، وقد أدار عليه الثوبين اللذين تحت القميص، فوقع الطرف الآخر عن منكبيه، وهو يجرّه لا يحفل به، ولا يرفعه.

فقال له خالد بن الريان، وكان حاضراً: ارفع ثوبك يا ابن نصير، فالتفت موسى إليه، وقال: ما أنت، وذاك، يا خالد. فقال سليمان: دعه، حسبه ما فعلنا به، فلما توارى موسى، قال سليمان معقباً: دعه، إنّ في الشيخ لبقية بعد(٢)

الصراع على الحكم:

بمصرع عبد العزيز بن موسى، على أيدي القتلة الذين كان بعث بهم سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ/ ٧١٦م بدأت في الأندلس مرحلة صراع على الحكم استمرت حوالي أربعين سنة، تناوب فيها الحكم على تلك البلاد الحديثة العهد بالفتوحات الإسلامية، كلّ من أيوب بن حبيب، حكم ستة أشهر،

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٠.
(٢) نفسه ٢/ ٨١.

فالحارث بن عبد الرحمن، حكم ثلاث سنين ونصفاً، فعنبسة، حكم حوالي ثلاث سنين، فيحيى بن سلمة، حكم سنة وثلاثة أشهر، فالهيثم بن عبيد، حكم سنة وشهرين، فعبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقي، حكم أربع سنين، فعبد الملك بن قطن الفهري، حكم سنة واحدة، فبلج بن بشر القشيري، حكم نصف عام، فثعلبة بن سلامة الجذامي، حكم خمسة أشهر، فأبو الخطار بن ضرار الكلبي، حكم ثلاث سنين، ثم ثوابة بن مسلمة، حكم سنة واحدةً وشهراً، فلما وهن سلطان بني أمية بالمشرق، ولّى الأندلسيون عليهم يوسف بن عبد الرحمن القرشي الفهري، من غير عهد من الخليفة بالشام، فحكم هذا الأخير عشر سنين، مستقلاً عن الخلافة الأموية، إلى أن جاء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، المقلب بالداخل، دخل الأندلس آتياً من المشرق، هارباً من فتك العباسيين، فأعلن قيام الدولة الأموية في الأندلس، دخل إشبيلية وقرطبة، فطرد يوسف الفهري، وقضى على الثورات، وحارب شارلمان تاركاً لابنه هشام دولة قوية[1].

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٣.

مبحث ثالث

طائفة من أخبار موسى ومحاوراته ومشاهداته وما أفاء الله عليه

عدّة مواليه:

قد تختلط الأسطورة بالحقيقة، ويختلط الخيال بالواقع، ونحن نتقصّى خبر موسى بن نصير، هذا الفاتح العظيم الذي استطاع في حقبة زمنية جدّ قصيرة أن يحقّق للدولة الأموية ما لم يحقّقه الكثيرون، إذ لقد بسط نفوذه في كل من مصر، فأفريقية، فالمغرب الأدنى، فالأوسط فالأقصى، فالأندلس، ناشراً رايات الدين الجديد فوق كل ناحية من نواحي تلك الأصقاع البعيدة عن عاصمة الدولة الأموية في الشرق، بالشام، وسواء أخضع شعوب تلك البلاد لموسى وجيوشه، تحت وطأة سنابك الخيل، خيل المسلمين، بالقوّة والإكراه، أم أنها دخلت في الإسلام، معظمها على الأقلّ، طائعة راضية، فإن الذي يتقصّى خبر موسى بن نصير، وفتوحاته تلك، في ثنايا كتب التاريخ ليأخذه العجب، إزاء العديد من تلك الأخبار التي نسبت إليه وألصقت به بصورة مباشرة، بحيث يكون هو المتكلّم والمتحدث، أو غير مباشرة بحيث نسب الآخرون إليه الأخبار التي يمتزج فيها، كما ألمعنا، الخيال بالواقع، والأسطورة بالحقيقة، وإن من هذا القبيل، الخبر الذي يتعلّق بعدّة موالي موسى بن نصير إذ ذكر بعض البصريين أن موسى سئل ذات يوم عن مواليه، وأهل بيته، فقال: كثير. قيل له: يكونون ألفاً؟ قال: نعم، وألفاً وألفاً حتى ينقطع النفس، فلقد خلّفتُ من الموالي ما أظن أن أحداً لا يخلف مثلهم[1]

ألف، وألف، وألف، حتى ينقطع النفس، من الموالي والعبيد، عدد يبعث على الغرابة والاستهجان، ولا يمكن الأخذ بصحته تماماً، لكن إن دلّ على شيء فإنما هو يدلّ على ما كان وصل موسى بن نصير إليه من التمكن والغلبة والتوسع والضرب بعيداً في سبيل الله، الأمر الذي يستوجب دخول العديد من الموالي، في كنف هذا القائد والأمير الذائع الصيت.

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٠.

ومن هذا القبيل، ما ذُكر من أن سليمان بن عبد الملك خرج ذات يوم، للنزهة، ومعه موسى بن نصير، إلى بعض ضياعه وأمواله وسوامه، فعرضت لسليمان غنم، نحو من ألف رأس، فأخذ العجب منه أيّما مأخذ، فالتفت إلى موسى، فقال له: ما رأيت مثل هذا من قبل، فهل رأيت مثلها، يا موسى؟ قال: نعم، إنّ لأدنى مواليّ، أي رقيقه، لأصنافاً كثيرة منها، ما أغاظ سليمان الذي التفت إليه، وقال: أدنى مواليك؟ على سبيل الاستغراب والاستهجان، قال: نعم، فردّدها سليمان ثانية، وقد أخذ الغضب منه كل مغضب، فاعتذر موسى ملتفتاً إلى سوء تصرّفه البريء، فعقّب قائلاً: نعم، يا أمير المؤمنين، وإن هذا إلاّ ما أفاء اللّه عزّ وجلّ به عليّ، لقد كانت الألف تباع بعشرة دراهم أو دونها، ولقد كانت في بعض المواطن، وما لها قيمة، ولا يلتفت إليها أحد، يا أمير المؤمنين، ولغير ذلك مما أفاء اللّه عليهم، ولقد رأيت العلج العُتُلّ ـ أي الرجل الكافر من الأعاجم الروم، الجافي الغليظ، من وقع في أسر موسى ـ والوصيف الفاره ـ أي الخادم الحاذق ـ والجارية الحسناء، وإن أكثر ما تبلغ خمسين درهماً، لكثرة ذلك من صنوفه كلها... ولقد رأيت الذود من الإبل ـ أي ما كان بين الثلاثة إلى العشرة من الجِمال ـ لا تبلغ قيمته عشرين درهماً. أكثير ما أعلمتك فيما تسمع، يا أمير المؤمنين؟ قال سليمان: لا، وحمد اللّه، كاتماً إعجابه واستغرابه[1].

الثور الزمردي:

وفي رواية عن محمد بن عبد الملك، نقلاً عن ريان بن عبد العزيز بن مروان أن موسى بن نصير دخل يوماً على سليمان بن عبد الملك، وكان هذا في مجلسه على سطح فسيح، والناس تدخل وتخرج، دخل موسى، فسلّم وجلس، فذكر سليمان بيت الذهب الذي كان فتحه قتيبة بن مسلم، في أقصى المشرق، وراح سليمان يردّد ما فيه، فقال له موسى: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ بيت لا يكون فيه عشرة آلاف دينار، واللّه، لقد بعثت إلى أخيك الوليد بثور من زمرّد أخضر، يعادل آلاف الدنانير، يصبّ فيه اللبن فيخضرّ، وإنه لمن أدنى ما بعثت به إليه، ولقد أصبت كذا وكذا، وأصاب المسلمون في المغرب كذا وكذا... فيما كان سليمان ينصت إليه مذهولاً متعجباً[2].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٢.

(٢) نفسه ٢/ ٨٤.

كنيسة الرقيق، سوق البربر:

ومن تلك الأخبار ما ذكره محمد بن سليمان، عن شيخ من مشايخ مصر، كان في زمانه، قال لما بعث موسى بالخُمس الذي أفاء اللّه عليه، من الجواري والرقيق، وكان مائة ألف رأس، فنزلوا بالإسكندرية، ونزل بعضهم كنيستها التي تعرف، أو قل كانت ما زالت تعرف حتى ذلك اليوم بكنيسة الرقيق، ولما نزل هؤلاء الرقيق، وكان معظمه من البربر، بربر المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، بالفسطاط، ليتسوّقوا بعض المتاع، ملأوا الموضع، وغصّ بهم المكان على اتساعه، فعرفت تلك السوق التي نزلها سبي موسى، ورقيقه، من البربر، عرفت بسوق البربر منذ ذلك اليوم[1]

البئر العذبة:

إذا كانت السوق التي نزلها رقيق موسى ما زالت تعرف بسوق البربر إلى أمد غير بعيد، بالفسطاط حتى اليوم، ومثلها الكنيسة التي في الإسكندرية، وقد نزلها هؤلاء الرقيق في طريقهم إلى الشام، فعرفت بكنيسة الرقيق، فإن ثمّة بئراً ما زالت تعرف حتى اليوم ببئر منية الخيل، وهي تقع في المغرب، كان هذا لما ركب موسى خارجاً من القيروان، فلما كان على أميال من البحر داخل البرّ الأفريقي المغربي، أخذ تراباً بيده، فشمّه، فأمر بحفر بئر، وقد علم أن تحت التراب ماءً عن طريق شمّه إياه، وبالفعل حفرت البئر فخرج منها الماء ولا أعذب، متخذاً على البئر داراً للخيل، وللسابلة، وعابري السبيل[2]

جنّ الحصن:

وتأكيداً على ما ذهبنا إليه، لجهة اختلاط الواقع بالخيال، والحقيقة بالأسطورة، فإن عمارة بن راشد حدّث عمّن كان في غزوة من غزوات موسى بن نصير في بلاد الأندلس، قال إنه فيما كان الفاتحون يجدّون في السير غرباً، يقودهم موسى نفسه، طالعتهم مدينة فوق أكمة تقوم عليها في وسطها حصن من نحاس، فأطاف بنواحيها، وأقام عليها طويلاً، فلم يقدر إلاّ بعد لأيٍ، ولما أراد افتتاح الحصن عبثاً ذهبت محاولته تلك، فأمر بالنبل والرماح، وراح يحث على الصعود إلى الحصن، واعداً من يرقاه أو يصعد إليه بخمسمائة دينار، فصعد أحدهم، فلما

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧١.
(٢) نفسه ٢/ ٧١.

استوى على السور تردّى ـ أي هلك ـ فيه، فنادى على الناس ثانية، وندب آخر، وقد وعده بألف دينار إن صعد إليه، فصعد، فتردّى، وكان مصيره مصير من سبقه، ثم ندب الناس ثالثة، واعداً بألف وخمسمائة دينار من يرقى إلى السور، فصعد إليه ثالث، فأصابه ما أصاب صاحبيه، فصاحت الناس قائلين: إن هذا لشيء عجاب، وقد كتموا الإعراب أو الإفصاح عن حُمق ما فعله موسى بالرجال الثلاثة، لكنّ موسى فهم مرادهم، فخاطبهم قائلاً: على رسلكم، يأتيكم الأمر على ما تحبون، إن شاء الله، ثم إنه أمر بالمنجنيق، آلة الرجم، أو قل مدفع ذلك الزمان، فوضعت على حصن المدينة، ثم أمر أن يرمى بالمنجنيق، فلما رموا به، ضجّ من في داخل المدينة والحصن، وصاحوا قائلين: يا أيها الملك، إنا لسنا نبغيك، ولا نحن ممّن تريد، نحن قوم من الجنّ، فانصرف عنّا.

فقال لهم موسى: أين أصحابي الذين أرديتموهم، وما فعلتم بهم؟ قالوا: هم عندنا على حالهم ما أصابهم مكروه. فقال موسى: أخرجوهم إلينا، قالوا: نعم. وإن هي إلاّ لحظات حتى جاؤوا بالثلاثة، فسألهم موسى عن أمرهم، وما صُنع بهم، فقالوا: ما درينا ما كنا فيه، وما أصابتنا شوكة حتى أخرجنا إليك، فحمد الله موسى كثيراً على هذا الفتح، وسلامة النفر الثلاثة، ثم تقدم بالناس، وراح يسير مفتتحاً المدينة تلو المدينة، والحصن تلو الحصن[1].

شياطين سليمان:

ومن هذا القبيل ما حدث به الكرير أبو بكر عبد الوهاب بن عبد الغفار، أحد كبار مشايخ تونس، قال: إنه لما انتهى موسى بن نصير إلى أحد الثغور، شاهد صنماً وإصبع يده تشير إلى الخلف فيما هو ينظر إلى الأمام، فتقدم موسى باتجاه الخلف الذي أشارت إليه يد الصنم الأول، فإذا صنم آخر، فإذ هو يشير بإصبعه إلى السماء، فتقدم موسى أكثر، فإذا بصنم ثالث قائم على نهر جارٍ، يشير بإصبعه إلى ما تحت قدميه، فأمر موسى من معه بحفر الأرض التي بين قدمي الصنم، فإذا بإبريق نحاسيّ مختوم الرأس، فأمر موسى بكسره، فانكسر، فخرجت منه ريح شديدة، أتبعها زوبعة أو ما يشبه الزوبعة أو الإعصار، فقال لهم: أتدرون ما هذا؟ قالوا: لا، والله، أيها الأمير ما ندري. فقال: ذلك شيطان من الشياطين التي سجنها نبيّ الله سليمانُ بن داوود[2].

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٢.

(٢) نفسه ٢/ ٧١.

آخر صنم:

وقريب من هذا، أو قل هو مما ينبثق عنه، ويمتّ بالصلة إليه، ما حدث به بعض مشايخ المغرب قالوا: إن موسى أمر ذات يوم، وهو يحثّ السير باتجاه الغرب مجاهداً في سبيل اللّه، أمر بعض نونيّته، أي ربابنة سفنه ومراكبه، أن يسيروا بمراكبهم إلى حيث يوجد صنم يشير بالإصبع، أو الإصبعين إلى ما أمامه في البحر، ثم إلى صنم آخر يشير بإصبعه إلى ما أمامه، ثم إلى ثالث يشير إلى صنم قائم فوق إحدى الجزر المسكونة بأناس لا يفهم ما يتكلمون، ولا يفهمون ما يتكلم، فلما وصلوا إلى تلك الجزيرة في أقصى الغرب علموا أن ليس وراء ذلك أحد من الناس إلاّ البحر المحيط، أو بحر الظلمات كما كانت العرب تطلق عليه، وهو أقصى الغرب في البرّ والبحر(١).

قمقم سليمان:

وقريب من الرواية أو الروايات التي سلفت، ما حدث به عبد اللّه بن قيس، قال بلغني أن موسى بن نصير لما جاوز الأندلس أتى موضعاً، فإذا فيه قباب من نحاس، فأمر بقبّة منها فكسرت، فخرج منها شيطان هائل وهو ينفخ نفخ الريح، فعرف موسى أنه أحد شياطين سليمان بن داود، النبيّ، كان سجنها في ذلك القمقم النحاسي، أو تلك القبّة النحاسية، تاركاً ما سواها من القباب(٢).

وعلى ذكر الأصنام، فإن أحد رواة المغرب، بل مشايخها، وانظر هنا في هذه الرواية إلى المبالغة في التزيّد ودغدغة الأسطورة والخيال، حدّث نقلاً عن أهل المغرب أن موسى بن نصير لما بلغ في فتوحاته نهراً في أقصى المغرب، شاهد، وشاهد معه الناس، على ضفّته اليمنى أصناماً ذكوراً، وعلى اليسرى أصناماً إناثاً، فخاف من معه، فرجع بهم، ثم مضى في وجهه حتى أدرك أرضاً تميد بأهلها، فخافوا أكثر(٣).

خلف موسى:

لما رضي سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير إثر قيام الأخير، وبمساعدة يزيد بن المهلب بدفع ما ترتّب عليه من دين كان قاضاه إياه سليمان، تحسّنت الحالة بين الاثنين، وصار سليمان يستدعي موسى إليه، كلما دعت

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٢.
(٢) نفسه ٢/ ٧٢.
(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٢.

الحاجة، فيسأله عن أحوال أفريقية والأندلس، فيسترسل موسى في الإجابة، أو يقتصر على الضروري منها وفاقاً للقاعدة التي تقول: لكل مقام مقال. وإن من هذه الأسئلة المتعددة، وما كان أكثرها، سؤال سليمان موسى عمّن خلّف في البلدان التي كان دانت له، وشارك في فتحها، فكان جواب موسى متمثلاً بالقول إنه خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز، وعلى أفريقية وطنجة والسوس ابنه الآخر عبد اللّه، الأمر الذي أغاظ ضمنياً سليمان الذي عقّب على موسى بالقول: لقد أنجبت يا موسى، أي لقد ضربت في النجابة والشرف والسؤدد بعيداً، قول يحمل في طيّاته الإعجاب ممتزجاً بالحقد والاستهزاء، فقال موسى دونما تمعنٍ في السؤال، وقد أخذته العزّة بالفخر، وكان يعرف بالسذاجة وطيبة القلب، وبتصديق ما يقال له، قال: ومن أنجبُ مني يا أمير المؤمنين؟ إنّ ابني مروان أتى بملك الأندلس، وابني عبد اللّه أتى بملك ميورقة وصقلية وسردانية ـ جزرٌ ثلاث في البحر المتوسط ـ وإن ابني مروان أتى بملك السوس الأقصى، فهم متفرقون في الأمصار، وغيرهم يغيرون فيأتون من السبي بما لا يحصى، فمن أنجبُ مني، يا أمير المؤمنين[1]؟ جواب أغضب سليمان، وأثار فيه كوامن حقده الماضي عليه، فقال لموسى معقّباً على جوابه: ولا أمير المؤمنين ليس بأنجب منك؟ فقال موسى، وقد انتبه إلى خطورة ما وقع فيه من تسرّع في الجواب، وعدم إحكام مضمونه، قال: شأن أمير المؤمنين شأن ليس فوقه شأن، وكل شأن، وإن عظم، دونه، لأنه به ومنه، وعلى يديه وأمره[2] جواب، أو قل اعتذار في هذه المرّة، محكم حصيف كفيل بأن يهدّئ من حنق الخليفة، ومن إطفاء نائرته عليه، وهذا ما كان بالفعل، إذ استحسن سليمان جواب، بل اعتذار موسى، فسكت عنه.

موسى ينصح سليمان:

وفي مجلس ضمّ كبار القادة العسكريين والسياسيين، وكان سليمان بن عبد الملك قد عزم على إرسال أخيه مسلمة بن عبد الملك في غزوة ضمّت، كما في رواية سعيد بن عبد اللّه، خمسمائة وثلاثين ألف رجل، وخمسمائة رجل من كتّاب الدواوين، ورؤسائها، فأحبّ أن يستأنس برأي ومشورة موسى بن نصير من بعد أن وسّط بينهما عمر بن عبد العزيز، فبعث وراءه، فحضر موسى للتوّ، فقال

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٣.

(٢) نفسه ٢/ ٧٤.

له سليمان: أشرْ عليّ، يا موسى، فلم تزل مبارك الغزوة في سبيل اللّه، بعيد الأثر، طويل الجهاد[١]

أطرق موسى مفكّراً قليلاً، ثم رفع رأسه، ، وهو الذي قضى سحابة معظم عمره في الغزوات والجهاد في سبيل اللّه، فقال: أرى، يا أمير المؤمنين، أن توجهه بمن معه، فلا يمرّ على حصن إلاّ صيّر عليه عشرة آلاف رجل، حتى يفرق نصف جيشه، ثم يمضي بالباقي من جيشه، حتى يأتي القسطنطينية، فإنه يظفر بما يريد، يا أمير المؤمنين[٢]

هذا ما نصح به موسى أمير المؤمنين، وهذا ما سوف يعمل به مسلمة، وإن كان كرِه ذلك في بادئ الأمر، لبعض إباء وكبرياء كانا فيه، وبالفعل فإن مسلمة أوقع بالروم، وفرّق عديدهم، وظفر ببطاريقهم، وكاد يظفر بالملك الأعظم، لولا سعاية من بعض رجاله، وحبالة أوقعه فيها بعض بطاريق الروم ما حال دون تحقيق الظفر على ملك الروم[٣]

نصحه للقرشي:

وعلى ذكر نصح موسى لسليمان بكيفية توزيع جيش مسلمة في بلاد الروم، نجد من المناسب أن نذكّر أيضاً بأن موسى بن نصير، لما كان في الكوفة، أو الحيرة إثر قدومه من بلاد المغرب، لقي رجلاً قرشياً من بني أمية جاءه مستنصحاً ومستشيراً، آخذاً رأيه في القدوم على الوليد بن عبد الملك، وأخيه سليمان في الشام، فكان جواب موسى أن حذّره أشدّ الحذر من التوجه إلى بلاد الشام، ومن القدوم على الخليفة، ووليّ عهده، وبالفعل فإن القرشيّ الأموي، جاء بلاد الشام، فضربت عنقه، ولم يشفع له نسبه الأموي أو القرشي، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حصافة رأي موسى، ورزانة عقله، وبعد نظره[٤]

عدّته في الحرب:

ومنها: ما ذكره بعض أهل العلم أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى بن نصير يوماً:

ما الذي كنت تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوّك؟ قال: التوكل، والدعاء إلى اللّه، يا أمير المؤمنين. ولما سأله سليمان عن كيفية امتناعه في

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٣.
(٢) نفسه ٢/ ٧٣.
(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٧٣.
(٤) نفسه ٢/ ٧٤.

الحصون والخنادق، كان ردّ موسى نفيه لهذا كلّه، وامتناعه منه، والتحصّن بالتوكل، وبالسيف والمغفر، وهو زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة، والاستعانة باللّه، وباستشعار الخوف والصبر، وبالرغبة إلى اللّه في النصر[١]

رأيه في بعض الأمم والقبائل:

ولقد سأل سليمان موسى يوماً، فقال له: من كان من العرب فرسانك وشجعانك؟ قال: حمير[٢] قال: فأيّ الخيل رأيت في تلك البلاد أصبر؟ قال: شُقرها. قال: فأي الأمم كانوا أشدّ قتالاً؟ قال: إنهم، يا أمير المؤمنين، أكثر مما أصفهم. قال: أخبرني عن الروم؟ قال: أسودٌ في حصونهم، عقبان على خيولهم - أي يطيرون مسرعين كالعقبان في السماء - نساء في مواكبهم، إن رأوا فرصة افترصوها، وإن خافوا غلبة فأوعال - أي تيوس - ترقل في أجبال، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة. قال: فأخبرني عن البربر؟ قال: هم، يا أمير المؤمنين، أشبه العجم بالعرب: لقاء ونجدة، وصبراً وفروسية، وسماحة وبادية، غير أنهم غُدُر. قال: فأخبرني عن الأشبان، أي الإسبان؟ قال: ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون. قال: فأخبرني عن الإفرنج؟ قال: هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدّة، والجلد والشدّة، وبين ذلك أمم كثيرة، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم الصالح، ومنهم المقهور المحارب[٣]

لم تهزم له راية:

ولما سأله سليمان عن الحرب التي كانت بينه وبين الإسبان كيف كانت؟ وهل كان النصر فيها يعقبه الخسران، كان جواب موسى له: لا، يا أمير المؤمنين، ما هزمت لي راية قط، ولا فضّ ليَ جمع - أي تفرّق - ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين. فضحك سليمان وقال: فأين الراية التي حملتها يوم مرج راهط مع الضحاك؟ فقال: تلك زبيرية، وإنما عنيت المروانية. فأعجب سليمان بقوله[٤]

---

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٣.

(٢) حمير، دولة عربية قديمة.

(٣) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٣.

(٤) نفسه ٢/ ٨٤.

ومرج راهط، موضع ببلاد الشام كانت فيه وقعة بين عبد اللّه بن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس، وكان تحت يده موسى بن نصير، وبين الأمويين.

مبحث رابع

النـهـايـة

سليمان يرضى عن موسى:

مضى بعض الوقت حتى اكتشف سلميان بن عبد الملك كذب ما كان نُمي إليه من عزم عبد العزيز بن موسى على خلع طاعته، والاستقلال بالأندلس دون الرجوع إلى أمر مولاه الخليفة، فندم أشدّ الندم، وأمر بالوفد الذين كان كلفهم مهمة اغتيال عبد العزيز، فأخرجوا جميعاً من حضرته، وما حقّق لهم رغبة تذكر قط، ليس هذا فحسب، بل إنه أمر بإسقاط ما على موسى من دين كان قاضاه إياه، ولقد عبّر الخليفة عن ندمه ذاك، وعن رضاه عن موسى بن نصير بالقول في محضر جلسائه: ما ندمت على شيء ندامتي أن لا كنت خلواً من اليمين على موسى في أن لا أوليه شيئاً... ما مثل موسى استغني عنه[1]

موسى يحجّ مع سليمان:

ولقد توطّدت علاقة موسى بن نصير بالخليفة سليمان بن عبد الملك، من بعد تلك النكبة التي كان نكبه بها في مقاضاته أموالاً لا قِبل له بحملها، وفي قتل ولده عبد العزيز، وعزل ولده الآخر عبد اللّه، توطّدت العلاقة بينهما، وصارا وكأنهما نديمان يصفي كلّ منهما الودّ للآخر، وهذا ما لا أظنّ تصديقه، إذ كيف وأنّى لموسى أن ينسى ما فعله سليمان به، مع هذا فلا يسعنا إلاّ أن نشير إلى ما ذكرته الرواية أن موسى من بعد أن رضي الخليفة عنه، أضحى صاحب حظوة ومنزلة عند سليمان، لا بل إن سليمان لما تجّهز للحج سنة ثمان وتسعين، أمر موسى بالشخوص إليه، والحجّ معه، وكان موسى ضعيف البنية، فأمر له الخليفة بثلاثين نجيباً، أي جملاً، موقورة، يعني محمّلة، جهازاً، وأمر له بحجرة من حجره، وبجائزة من جوائزه، فحجّ موسى ذلك العام مع سليمان، وفيما كان الخليفة يوماً من أيام الحج يسير إذ دعا بموسى بن نصير، فناداه خالد بن الريان، وكان موسى يساير رجلاً ناداه، فلم يلتفت موسى إلى ندائه، ثم دعا به، فناداه

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨١.

خالد ثانية، فلم يلتفت إليه، فقال له الرجل: غفر اللّه لك، ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين، إني أخافه، وأخاف أن يغضب. فقال موسى: ذلك، لو كان عبد الملك، أو الوليد. فأما هذا ـ يعني سليمان ـ فإنه يرضيه ما يرضي الصبيّ، ويسخطه ما يسخطه، وسترى ذلك. وبالفعل، تقدم موسى حتى لحق، ولصق بسليمان، فقال له: أين كنت يا ابن نصير؟ قال: يا أمير المؤمنين، أين داوبّنا من دوابّك؟ إني منذ دعاني أمير المؤمنين لفي كدٍّ، حتى لحقت أمير المؤمنين. فضحك سليمان، وأمر لموسى بدوابّ من مراكبه، فسايره، وحادثه، ثم انصرف عنه، فلحق الرجل بموسى، فقال له موسى: كيف رأيت؟ قال: أنت كنت به أعلم. فسار سليمان حتى نزل المدينة في دار يزيد بن رومان[١]

إذا جاء القدر عمي البصر:

وذكر أن موسى من بعد أن رضي عنه سليمان بن عبد الملك، راح يتردّد على مجلسه، وفي ذات ليلة وهي آخر ليلة من شعبان، أو قل قبيل آخر ليلة من آخر يوم منه، دخل موسى، كعادته على الخليفة، وكان فوق سطح منبسط، يستشرف الشهر، يعني هلال شهر رمضان، ومعه ثلّة من أعيانه ورهط فقهائه، وهم في حيرة من أمرهم، لا يهتدون إلى رؤية هلال رمضان، فلما رأى سليمان موسى مقبلاً قال: عندكم، واللّه، من إن سألتموه عن الهلال ليخبرنكم أنه قد رآه، وقد غُمّ الهلال يومئذٍ على الناس. فلما دنا موسى وسلّم، قال له سليمان: أرأيت الهلال؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، ها هو ذاك، وأشار بإصبعه إلى ناحية الغرب في السماء، وهو مقبل على سليمان بوجهه، فرمى الناس بأبصارهم حيث أشار موسى، فأبصروا الهلال، فلما استقرّ بهم المجلس، قال موسى: إني واللّه لست بأحذّكم بصراً، ولكني أعلمكم بمطالعه ومناسقه، أي منازله. ولما خرج موسى لقيه يزيد بن المهلب، وكان حاضراً، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، بينا أنت أدهى الناس، وأعلمهم، أقبلت تسوق نفسك حتى تضعها في يد سليمان؟ فقال له موسى: أما علمت، يا أبا خالد، أن الهدهد يهتدي إلى الماء، ويعرفه من الأرض الفضاء، ومن الحزونة والسهل، ويبصر القريب منه والبعيد، ثم ينصب له الصبيّ الفخّ بالدودة وما أشبهها فلا يبصر ذلك حتى يقع فيه فيؤخذ؟ إذ لا حذر يغني من قدر، كذلك أنا وسليمان[٢]

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٤.

(٢) نفسه ٢/ ٨٢.

الشيخ موسى:

كنا ألمعنا إلى أن علاقة موسى بن نصير بسليمان بن عبد الملك توطّدت، فنال الأول رضى الثاني إثر وساطة قام بها عمر بن عبد العزيز الذي ولي الحكم بعد سليمان، وعقب قيام يزيد بن المهلب بمهمّة سداد الدين الذي كان قاضاه سليمان لموسى، من بعد إيداعه، السجن، وتغريمه بمبلغ قيل: إنه مائتا ألف ليرة ذهبية، حملت لخم عنه تسعين ألفاً ذهباً منها، لا بل إن طائفة من بني جلدته، وعشيرته راحوا يطوفون على أحياء العرب، يجمعون له الدراهم والدنانير، درهماً درهماً، وديناراً ديناراً ليسدّوا عنه ما كان غرّمه إياه به سليمان بن عبد الملك، على ما ذُكر في الأخبار[١]

مع هذا فإن العلاقة بين سليمان وموسى لم تنقطع البتّة، لكن بقي شيء من حقد، واستخفاف، في نفس سليمان، على موسى بن نصير، إذ، وكما ذكر، فإن الأخير دخل يوماً في أخريات أيامه على سليمان، وعنده الناس، فلما رآه سليمان قال: ذهب سلطان الشيخ! على سبيل التشفي والانتقام، والاستهزاء، فسمعها موسى منه، لكن لم يتبيّن تماماً حقيقة ما قال، فلمّا سلّم موسى قال: رأيتك، يا أمير المؤمنين، لما نظرتني داخلاً تكلمت بكلام ظننتك عنيتني به. قال: نعم، قلت ذهب سلطان الشيخ. قال له موسى: أما، واللّه، لئن ذهب سلطان الشيخ، لقد أثر اللّه به في دينه أثراً حسناً، ولقد كنت طويل الجهاد في اللّه، حريصاً على إظهار دين اللّه، حتى أظهره اللّه، وكنت ممّن أتمّ اللّه به موعده لنبيّه، ولئن أدبر معك، لقد كان مع آبائك ناضر الغصن، ميمون الطائر.

فقال سليمان: هو ذاك. فقال موسى: وهو ذاك. فلم يزل يردّدها سليمان، ويردّدها موسى، حتى سكت سليمان[٢].

إدبار الشيخ:

وعلى ذكر الشيخ هذا اللقب الذي أطلقه سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير، سمّه استخفافاً به، أو تبجيلاً، ولا أظنّ أن إطلاق هذا اللقب كان تبجيلاً له من قبل سليمان، بل استخفافاً واحتقاراً، وامتهاناً له، ليس من قبل سليمان فحسبُ، بل من قبل بعض قريش أيضاً، يدلّ عليه، وكما جاء في «الإمامة

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٩.
(٢) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٣.

والسياسة» عن عبد اللّه بن صخر، أنه قال: بينما موسى يسير يوماً في أخريات أيامه، على دابة له، وكان موسى طُوالاً جسيماً، فمرّ به رجلان من قريش، وقد تدلّت رجلاه، وانحنتا، فقالا: أدبر، واللّه، الشيخ! فسمعهما موسى، فقال لهما: من أنتما؟ فانتسبا له. فقال: أما، واللّه، إنّ أمّيكما لـمّا أفاء اللّه على يدي هذا الشيخ، فقد أهداهما إلى أبويكما.

فقالا له: ومن أنت، يرحمك اللّه؟ قال: موسى بن نصير. فقالا: مرحباً وأهلاً، صدقت وبررت، واللّه، ما عرفناك. فقال: لا عليكما، قد، واللّه، أدبر عني، وبقي مني[1]

موسى ينعي نفسه:

لئن كان موسى بن نصير قد علم بأنه سوف يموت في أرض المشرق، وهو في بلاد المغرب والأندلس، بحسب ما ذُكر عن عرفة بن عكرمة أنه حدث عن بعض مشايخ من مراد، عن رجل منهم كان مع موسى بن نصير بالأندلس، قال: كنت أبصر من مجاري الشمس والقمر شيئاً، فوقع فيّ عند موسى، وقيل له: عنده علم، فواللّه، ما شعرت حتى أتيت فأخذت، فأدخلت عليه، فإذا بين يديه عصفور مذبوح، مشقوق البطن، قال لي: أدخل يدك، فانظرْ. قلت: أصلح اللّه الأمير، طلقت امرأتي إن كان لي بهذا العلم صلة، إلا ما أعلمه وتعلمه الناس بمجاري الشمس والقمر. فأمر به موسى، فنُحي، ثم دعا برجل من أعاجم الروم القوط، فقال له: أدخل يدك، فانظر ماذا ترى، وكان هذا الأعجمي أسيراً بين يديه، فأدخل يده في جوف العصفور، فحرّكه طويلاً، ثم قلبه، ثم قال للترجمان بلسانه الإسباني: إنه ليس يموت ها هنا، ولكن يموت بالمشرق في بلاد العرب. فنظر إليه موسى، ثم قال له: قاتلك اللّه، ما أعلمك! ثم إن موسى دعا بالرجل المرادي، فأخذ عليه الأيمان أن لا يتكلم به ما بقي، ففعل الرجل[2]

أقول لئن موسى بن نصير آمن بأنه، وهو في عزّ انتصاراته وإقامته ببلاد الأندلس، سوف يموت في المشرق، وهذا ما حصل بالفعل، فإن موسى، علم بدوره بدنوّ أجله، لا عن طريق الأعجمي الروميّ، بل علم هذا بنفسه، واستشعر الموت من قبل أن يموت بيومين، لا غير، هذا ما حدث به بعض أهل المدينة، أن

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٥.

(٢) نفسه ٢/ ٨٦.

موسى قال يوماً لبعض من يثق به: ليموتنّ إلى يومين رجل قد بلغ ذكره المشرق والمغرب. فلم نظنّ، يقول الراوي المديني، إلاّ أنه يعني الخليفة، فما كان اليوم الثاني، إلا وأنا في مسجد الرسول ﷺ، فإذ بي أسمع الناس تقول: مات موسى بن نصير، فإذا الذي عناه موسى، هو، أي موسى نفسه، فصلى سليمان عليه، ودفن رحمه اللّه[1]

(١) الإمامة والسياسة ٢/ ٨٥.

الخاتمة

أخيراً، وفي نهاية هذا الكتاب، لا بدّ من التذكير بأنّ عملنا هذا إنْ هو إلاّ إطلالة متواضعة على جانب من جوانب متعددة من سيرة حياة هذا الفاتح العربي المسلم ذي الهمّة العالية، والعزيمة الصادقة، وإن هو أيضاً إلاّ إطلالة متواضعة على صفحة من صفحات تاريخ الفتوحات العربية والإسلامية التي شهدها العصر الأموي، ذلك العصر الذي حكم فيه الأمويون كلاّ من بلاد الشام وشمال أفريقية، وبقاعاً مترامية الأطراف من بلاد المشرق، من سنة ٤٠هـ/ ٦٦١م إلى سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وبلاد الأندلس من سنة ٩٣هـ/ ٧١١م إلى سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، فكان أشهر حكام الأمويين وملوكهم وخلفائهم في المشرق معاوية بن أبي سفيان (حكم من سنة ٤٠هـ إلى سنة ٦٠هـ) مؤسّس الدولة، وعبد الملك بن مروان (حكم من سنة ٦٥هـ إلى سنة ٨٦هـ) وأولاده الأربعة، الوليد (حكم من سنة ٨٦هـ إلى سنة ٩٦هـ)، وسليمان (حكم من سنة ٩٦هـ إلى سنة ٩٩هـ)، ويزيد (حكم من سنة ١٠١هـ إلى سنة ١٠٥هـ)، وهشام (حكم من سنة ١٠٥هـ إلى سنة ١٢٥هـ).

وكان أشهر حكام وأمراء وخلفاء الأمويين في الأندلس عبد الرحمن الملقب بالداخل (توفي سنة ١٧٢هـ)، وهشام بن عبد الرحمن (توفي سنة ١٨٠هـ)، والحكم بن هشام (توفي سنة ٢٠٦هـ)، وعبد الرحمن بن الحكم، الثاني (توفي سنة ٢٠٧هـ)، وعبد الرحمن الناصر لدين اللّه، الثالث (توفي سنة ٣٥٠هـ)، وهشام الثالث الملقّب بالمعتدّ باللّه، وهو آخر حكّامهم (توفي سنة ٤٢٢هـ).

فتوحات، وللحقيقة، نقول إنها وإن كانت في حركتها الظاهرة امتداداً للفتوحات الإسلامية التي شهدها عصر صدر الإسلام الأول، إلاّ أنها حملت في داخلها العديد من عناصر الضعف والسلبية، بحيث أنها خرجت في أحيان كثيرة عن الدعوة خالصة للّه، وعن منطوق الجهاد للإسلام، فتوحات لطالما حركتها الأطماع والشهوات، بحيث أن معظم همّ أصحابها، والآمرين بها، ما كان إلاّ جمع الأموال، وامتلاك العقارات، واحتواش الرقيق والجواري والإماء، والاستئثار بالفيء، والانفراد بالغنائم، دونما مراعاة لحقوق اللّه، فتوحات لطالما دفع ثمنها

أبطال الفتح وقوّاده أنفسهم، إذ كان الخلفاء والآمرون بالفتح يكيدون لهذا، أو يعزلون ذاك، أو يغتالون ذلك، وقد شهدنا طرفاً من هذا كلّه، لدى الحديث عن اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير، من قبل سليمان بن عبد الملك، الخليفة الأموي، بحجّة أنه يعمل على الاستقلال بالأندلس، ولدى الحديث عن موسى بن نصير نفسه، هذا الذي دفع الثمن باهظاً، فقاسى من سليمان ما قاسى، وعانى في أخريات أعوامه من البطش والإذلال والهوان ما عانى، لا لذنب اقترفه فاستحق العقاب عليه، بل لأنه فتح ذلك الفتح، وغنم ذلك المغنم، فلما جاء بالسبي والفيء إلى الشام ليضعه بين يدي خليفته ومولاه وسيّده الوليد بن عبد الملك، تصدّى له سليمان، وكان وليّاً للعهد، فكتب إليه يأمره أن يبطئ بالقدوم على الوليد ريثما يقضي هذا نحبه، فيستأثر هو لنفسه بهذا الفيء، وذلك الغنم، وإن لم يفعل موسى ما يؤمر به، فالحجّة، أو الذريعة، جاهزة أبداً، لتكون واجهة مشروعة لسياسة التنكيل والفتك والبطش والانتقام، وإن الحجّة هذه إلاّ الخروج عن الطاعة، وعصيان الأمر، وهنا، في الغالب، تكمن المأساة، مأساة كل فاتح عظيم.

وخلاصة القول، لقد استعرضنا في هذا الكتاب، وكما تقدم، صفحة من صفحات الفتوحات العربية الإسلامية أيام الدولة الأموية، وجانباً مهمّاً من جوانب سيرة حياة ذلك الفاتح العربي اللخميّ، بالولاء، التابعي الذي روى عن تميم الداري، ذلك الذي غزا بلاد البربر في الشمال الأفريقي فنشر في ربوعهم الإسلام، ثم غزا الأندلس، في بلاد الإسبان، فأسلم من أسلم منهم، وظلّ ذكر (اللّه أكبر) يتردد فوق مآذن الأندلس ثمانية قرون، من بعده، وإنّ الفضل، في هذا، إلاّ لمن سبق، وقام بهذا الفتح، عنيت موسى بن نصير، ذلك الفاتح الورع العاقل الشجاع، من ورث عن أبيه نصير الكثير من خصائص الورع والشجاعة، ألم يحجم نصير، ذات يوم، عن الخروج إلى حرب عليّ، مع معاوية، وكان على حرسه، استشعاراً منه بأن الحقّ مع عليّ، لا مع معاوية، خصائص ومواقف مشرّفة أورثها من بعده ولده موسى، هذا الذي كان الوليد بن عبد الملك أرسل إلى عمّه عبد اللّه بن مروان الوالي على مصر وأفريقية أن يبعثه إلى غرب أفريقية، فكان ما أراد، وافتتح ثغورها واحداً بعد الآخر مسطّراً في فتوحاته وغزواته سطوراً من الشجاعة والبطولة، ومن الحزم والعزم، ما سطّرها أحد من قبل، غانماً من المغانم التي كان يبعث بها إلى مواليه الأمويين ما لم يُسمع بمثله من قبل في الإسلام. . ثم ألم يُخبت موسى إلى اللّه لما قحط أمر الناس، فاحتبس المطر طويلاً، ذات عام، فأمر الناس بالصوم والصلاة والإحرام، فخرج بهم موسى إلى العراء، ومعهم الحيوان

والدوابَّ مفرّقاً بين أولادها وبينها، فارتفع وارتفعوا بالبكاء والتضرّع إلى اللّه، ظلّوا هكذا إلى الظهر، ثم صلّى موسى بالناس، وخطب، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك، ولا دعا له، لأن المقام، كما قال هو نفسه، لما سُئل عن سبب ذلك، مقام لا يُدعى فيه لغير اللّه، فكان أن استجاب اللّه دعاءه، وقبل تضرّعه وصلاته، فأمطرت السماء مدراراً، فسقي القوم والحيوان والدواب، حتى رووا وأمرعوا وأخصبوا. . .

وأيّاً كانت مساوئ موسى بن نصير، وهفواته، وهناته، ولكل فاتح مساوئ وأخطاء وهنات، وأطماع وشهوات، فلا يسعنا أن ننسى أن موسى بن نصير هذا، قد غزا في سبيل اللّه، وجاهد في سبيل اللّه، متتبعاً البربر من مكانٍ إلى آخر، ومن ثغر إلى ثغر، متشدداً في القتل حيناً، متراخياً حيناً آخر، ظلّ هكذا حتى استسلم البربر له، في السوس الأدنى، فالأقصى، فبذلوا له العطاء، فأمر بتعليمهم القرآن، والسنن والفرائض وأحكام الدين، كما لا يسعنا أن نغفل عن أن موسى بن نصير، هذا، هو الذي استعمل طارق بن زياد مولاه على طنجة، وكتب له أمره بغزو بلاد الإسبان بالبربر وبعض العرب، إعلاءً لكلمة اللّه، فامتثل طارق البربريّ أمر مولاه موسى، وركب البحر، ومعه المقاتلة من العرب والبربر، من سبتة إلى الجزيرة الخضراء من برّ الأندلس، ليصعد من ثمّ إلى الجبل الذي سمّي باسمه صبيحة الاثنين لخمسٍ خلون من رجب سنة ٩٢هـ.

موسى بن نصير، هذا، هو الذي هبّ إلى نجدة طارق لما استنجده، وقد ضاقت على طارق فتوحاته، فعبر موسى البحر، ليلقى طارقاً في طلبيرة، ثم توجها معاً إلى سرقسطة في إقليم أراغون، فافتتحاها، ثم توجه موسى شرقاً فاحتل طرقونة وبرشلونة، وشمالاً فوصل إلى حدود جبال البيرينه. . .

خلاصة القول، قارئي العزيز، أن موسى بن نصير هو هذا الفاتح الذي حقّق للأمويين ما لم يحققه الآخرون، وغنم من الأموال والسبايا والفيء ما لم يغنمه الآخرون، ألم يرسل إلى الوليد بن عبد الملك لما رأى من الغنائم، كتاباً يقول: إنها ليست الفتوح، ولكنه الحشر!

موسى بن نصير، هذا الفاتح الذي مهّد لحكم الأمويين الأندلس، في الغرب، والذي كما ذكر الرواة والمؤرخون، لم تهزم له راية قطّ، ويا للفاجعة، أُمر، على حين غرّة، أو غفلة من الزمن، بالتوقف عن متابعة الفتح، وبترك الأندلس، والرجوع إلى الشام مع المال والفيء والمغانم، ورجع موسى امتثالاً للأمر، وفي نيّته الدخول على الوليد بن عبد الملك، لكن هذا وافته المنيّة، فدخل

على سليمان أخيه، وليّ عهده، وخليفته من بعده، فكان ما كان من شأنه، مما كنا عرضنا له في تضاعيف الفصول السابقة، وكان المصير الذي كان يتربص به، ليموت غريباً منفيّاً في وادي القرى، مسقط رأسه بالحجاز، تجمع له الدراهم درهماً درهماً، والدنانير ديناراً ديناراً، ليؤدّي ما كان قاضاه به سليمان بن عبد الملك، من دين فرضه عليه ظلماً وعدواناً، ونكالاً منه بهذا الفاتح العظيم.

المصادر والمراجع

ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، دار المعرفة، بيروت.
ـ البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى، بيروت ١٩٥٠.
ـ تاريخ الأمم والملوك، للطبري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٨٨.
ـ جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس، للحميدي، القاهرة ١٩٥١.
ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري، بيروت ١٩٧٥.
ـ السيرة النبوية، لابن هشام، دار الكنوز الأدبية، بيروت.
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
ـ العقد الفريد، لابن عبد ربّه، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
ـ فتوح مصر وأفريقية والأندلس، لابن عبد الحكم، القاهرة ١٩٦١.
ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت ١٩٨٨.
ـ المجمل في تاريخ الأندلس، لعبد الحميد العبادي، القاهرة ١٩٦٤.
ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥.
ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٩٧٨.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني
الحقبة الأندلسية

الفصل الثالث

نهاية المطاف



شخصيات من التاريخ

موسى بن نُصير

الفاتح الذي لم تهزم له راية



دار الفكر العربي

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش سليم سلام - بناية الشروق - الطابق الاول . ص.ب. ٥٠٧٠ / ١٤ - بيروت - لـ

هاتف: ٣١١١١٤ - ٠١ / ٣١١١١٥ - ٠١ ـ فاكس: ٣١٣٧٣٦ - ١ - ٠٠٩٦١

Beirut - Lebanon • E-mail: fikrarab@cyberia.net.lb

ISBN 9953-25-133-9

